جائزة غونكور الفرنسية للقصة القصيرة

نُبالغ في تقدير الحُب

بريجيت جيرو

ترجمتها عن الفرنسية

وئام غداس

نُبالغ في تقدير الحب

الكتاب: نُبالغ في تقدير الحب

المؤلف: بريجيت جيرو

ترجمة: وئام غداس

العنوان في اللغة الفرنسية: L'AMOUR EST TRÈS SURESTIMÉ

تصميم الغلاف: إسراء النجّار

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

هذه النسخة مرخصة بموجب العقد مع مالك الحقوق

Editions Stock, 2007 ©

عدد الصفحات: 72

الترقيم الدولي: 978-1-7386435-2-3

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

الموقع الإلكتروني Hayatph.com

بريد إلكتروني info@hayatph.com

بريجيت جيرو

نُبالغ في تقدير الحب

ترجمتها عن الفرنسية

وثام غداس

«نبالغ في تقدير الحب»

دومينيك.أ، مبالغ فيه[1]

(1) دومينيك.أ: اسمه دومينيك آني، وهو فنان فرنسي ولد في 6 أكتوبر 1968، مؤلف موسيقي ومغنٍّ، «مبالغ فيه» هي إحدى أغانيه الشهيرة التي تتحدث عن الحب، ضمن ألبومه الرابع الصادر عام 1999، بعنوان «اضطراب».

نهاية القصة

إنها نهاية القصة وأنتِ لا تعرفين ذلك. ها هو ذا هنا، واقفًا أمام النافذة، وأنت غاضبة لأنه يحجب عنك النور. ليس هو من ترينه ولكن النهار الذي يمنعه من الدخول. يبدأ الأمر هكذا. هو هنا، ووجوده يزعجكِ. ما عدت تنتظرينه. تعودين إلى البيت في المساء وتفتحين الراديو. قبلة شاردة وأنتِ تخلعين حذاءك. ثم يحلّ الصمت. لا تعرفين كيف حدث هذا. منذ متى؟ فكرتِ أن ذلك غير ممكن. ليس هو وليس أنتِ. تعرفين كل الفِخاخ، الروتين، التسوّق. يبدو أن الغَسْل يقتل الحب. لم تتخيلي ذلك قط، ترفضين ترك نفسك تسقطين وتنغلقين في كليشيه كهذا. لكن دخان سيجارته يزعجكِ مع ذلك. هذه علامة. تتغافلين عن تفسير العلامات.

لم يحصل شيء، وأنت لا تحبينه بعد اليوم. تحاولين التثبت. يجب أن تكوني متأكدة. ولكنك لستِ كذلك. أنت تحبينه، في الحقيقة، ولا تحبينه في الوقت نفسه. عليكِ أن تقرري، لأن الأمر أصبح مزعجًا بالفعل. تفكرين أنكِ تحبينه، لكنك لا تتحملين أن يقطع الصالون برداء الحمام. أن يجلس أمام التلفزيون بهذه الهيئة، وشعره الذي ما يزال مبللًا، مسرّحًا إلى الوراء. تحبينه هو، بلا شك، ولكن هذا المشهد المتكرر يوميًّا هو ما يجعلك تنفرين. يجب

ألا تخلطي الأمور. الأكيد أنك تحملين كثيرًا من المشاعر الرقيقة تجاهه. يبدو أن هذا ما نقوله، عندما نتوقف عن الحب. كلما أظهرنا مودّة أكثر أحببنا أقلّ، ماذا إذن؟ لكن من يستطيع تحديد الفرق بين الاثنين؟ تظهر المودّة عندما نفقد الرغبة. عندما نكتفي بمداعبة خد شريكنا قبل النوم. إنها ما يجمع بابرينال ونيكولا[1].

لستما في هذه المرحلة مع ذلك. تمارسان الجنس، بالطبع. بل تفعلان ذلك دائمًا، وباقتناع ورغبة. ولكنه يفعل ذلك بشكل سيئ. ترى هل هو من يفعلها بشكل سيئ؟ أم أنت تتصيدين الأخطاء؟ منذ متى والحال هذه؟ ولماذا لم تتحدثي معه بهذا الشأن من قبل؟

تُبعدين فكرة أنكِ توقفتِ عن حبه. ولا تتصورين أنه عليكِ أن تقولي له شيئًا كهذا. مع أنه بالنسبة لكِ هو شغلك الشاغل، الذي تستوعبينه تمامًا. تقبلين فكرة أنك لا تتحملين بعد الآن: مشيته، سياقته، الموسيقى التي يسمعها، دون أن تحوّلي هذا الأمر إلى دراما. أنتِ مزعجة، جارحة أحيانًا، ولكنك تموّهين. ثم تفقدين السيطرة على الأمور. تُفلت منك. تبدئين صفّ الشكاوى ومراكمتها، فتشبهين أمك. تكرهين نفسك. تحاولين التحلي بدم بارد، وإعطاء فرصة أخرى لقصتك. أنتِ رقيقة، متفهمة، أنت كل ما يستلزم الآلة الآن، كي تعود إلى العمل. لست مجبرة على الحديث حول هذا.

(1) بابرينال ونيكولا: بطلان (بنت وصبي) في السلسلة التلفزيونية الفرنسية الشهيرة المخصصة للأطفال «تصبحون على خير يا أطفال» والتي بدأ إنتاجها منذ العام 1962 واستمرت حتى 1973، وتكونت من 568 حلقة. أُنتِجت عدة نسخ منها في السنوات التالية في عدة قنوات فرنسية وأوروبية.

يمضي أسبوع، اثنان أحيانًا. تذهبان إلى السينما، تقومان بدعوة الأصدقاء، تمضيان إلى الجبل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. تفكرين أنك تضللين نفسك. إنه رجل حياتك بالفعل. لقد كنت مخطئة، ظالمة، متعجّلة، متطلبة بهوس.

من تظنين نفسك؟ ينسى مفاتيحه بعد ذلك، فيسبب لك الأمر أزمة، يحاول أن يقبّل عنقكِ، فتدفعين مشاعره الفائضة بعيدًا عنك. تقولين إنه لا وقت لديك. ترشح منك الأعذار. تفكرين في أنَ كل ما يحصل ليس سوى خطئه. منذ متى وهو خطؤه؟ متى بدأ هذا؟

تستدعين ذاكرتك، تفحصين أدق التفاصيل. تتعقبين القرائن، تحتاجين إلى أدلّة. لا تؤمنين بإهمالك، فهذا أمر لا يشبهكِ. ترفضين قبول فكرة أنك استطعت خداع نفسك. لديك الحكم الأفضل على شخصيتك. لكن كلما بحثتِ أكثر فهمتِ ما جرى أقلّ. تعيدين الشريط من بدايته، من اليوم الأول: لقاءكما بعد حفل راقص، مكالمتكما الهاتفية الأولى، عشاءكما الأول، ليلتكما الأولى، عطلتكما الأولى، **بياريتز**، الفندق الذي يقع أعلى البحر، الريح والمحيط الجامح، أول عودة لكما من العطلة. نظرتكما الحزينة لفكرة أنكما ستفترقان لتعودا إلى العمل. كلا، إنك لا ترين شيئًا كان يمكن أن يدعوك إلى الحذر في كل هذا. كان يدخن داخل السيارة، ولم يحدث أن أزعجك هذا. في المساء، كان يشرب كثيرًا وأنتما في المطعم، وكنتِ تشربين معه. كان يضيّع ولاعته، نظارته، أوراقه، وكنت تجدين ذلك رومانسيًّا. كان يغمرك بالبهجة. كان فريدًا، خفيفًا، متهورًا. ترينه مختلفًا جدًّا. تستعيدين أول شقة زرتماها، تتذكرينها جيدًا. اتفقتما أنها جيدة، ووجدتما كل شيء فيها مناسبًا

لكما. لم تَثنِكما الرطوبة ولا الضجيج، ولا عدم وجود سخان، ولا ضيق مساحتها. قررتما أن لا تلقيا لذلك بالًا. كنت تلتهمينه بعينيك. لا تفكران في شيء سوى المستقبل الماثل أمامكما. كنتما خالدين. كنتما تمتلكان كل الوقت.

وهذا الوقت، الذي هو اليوم، ما الذي تفعلين به؟ تدمّرينه، تقيّمينه، تضعينه في مقارنات، تحاولين تفسيره. تجعلين من وقتكما هذا سلّمًا لتحديد القيمة. رجل حياتك تحوّل إلى حقل تجارب. تضعينه تحت التجربة، تُرغمينه على الدخول في صناديق، الصناديق التي تلائمك. تخصصين له مكانًا. وتمنحينه دورًا. وتفرضين عليه ألا يتجاوز تلك الحدود. تتعاملين معه مثل «شيء»، حيث أنت فقط من يحدد كيفية استعماله. تتحكمين فيه حسب إرادتك. تعرفين ما يجب عليه القيام به، التفكير والقبول. تريدين تعليمه، إعادة تعليمه. ما عدتِ تحبينه. لقد أفرغته من معانيه الأساسية ومواده الأولية، جعلته مستهلكًا. أصبح ضئيلًا أمامك ومتعَبًا، وهكذا لم يعد يعجبكِ. صَدفة فارغة لأنكِ امتصصتها. هل نستطيع أن نحبّ صَدَفة؟ هل نستطيع أن نحبّ رجلًا لا يتمرّد؟

هل بدأ هذا منذ اليوم الأول؟ هل أنتِ من قتل قصتكما؟ يُقال: إن النهاية تكون مكتوبة داخل البداية. خطأ من إذن؟ الذي ابتلع الآخر، أم الذي سمح للآخر أن يبتلعه؟

صيف الانتظار

ماري ترينتنيون تموت. هي الآن على متن الطائرة التي ستعيدها إلى فرنسا. غادرت فيلنيوس قبل ساعتين على أقصى تقدير. وسوف تصل في الليل. إنها تموت منذ ثلاثة أو أربعة أيام.

أفكر في ماري ترينتنيون كل لحظة. أنا في بيتي الآن. لا أعمل. نحن في نهاية شهر يوليو، وأنا ما أزال أفتح الكراتين على إثر انتقالي. لا شيء يحدث. حرارة الجو مرتفعة ومن وقت إلى آخر تقوم عواصف مفاجئة. الأشجار التي في قاع الحديقة على وشك أن تقطع تحت الريح ووابل البَرد. أستيقظ متأخرة، وبينما أفتح الراديو ينتابني الخوف من أن يعلن خبر وفاة ماري ترينتنيون. لا أحد يعرف مكان برترندت كونتا. هو الآن بين يدي الشرطة الليتوانية. ظهر على شاشة التلفزيون وهو مقيّد بالأصفاد، تقتاده الشرطة وهو مثقل الخطوات في ممرّ أحد الفنادق. كان رأسه مطأطَأً، وشعره طويلًا. ماري ترينتنيون سقطت وخُبط رأسها. هذا ما سمعناه أولًا. «المناقشة العنيفة» تحوّلت إلى «ضربات» ثم إلى «إصابات». ثم «عدم مساعدة لشخص في خطر». كان هنالك تصعيد ومبالغة في كل ما سمعناه، مناقشة خاطئة، مواجهة. هكذا حتى تحولت المناقشة رويدًا إلى جريمة. ارتكب برترندت كونتا جريمة. إنها إحدى الكلمات التي لا نقوى على نطقها.

اليوم الذي ماتت فيه ماري ترينتنيون هو يوم موت برترندت أيضًا. وفقدنا أصواتنا جميعًا، شاعرين بالذنب مما حصل للتوّ. مذنبون مثل العادة، لأننا لم نستطع منع أي شيء. لم نستطع سوى أن نقول: برترندت كونتا هو أنا. اقترفنا ما لا يمكن إصلاحه أيضًا. لقد كنا عاجزين عن التفكير. لقد دمرتنا حاجتنا إلى الفهم، حاجتنا إلى المواساة. تغيّر الصيف، لم يعد هو نفسه. لقد كان صيف النهاية، نهاية الحب، نهاية الموسيقى، نهاية السينما، نهاية الأوهام حول الحب. شيء ما مات فينا. كان ثمة أطفال فقدوا أمهم. وثمة أيضًا جسد ماري الذي يطير في السماء. إنه صوت برترند كونتا الذي يعود مجددًا إلى العدم. الصوت الذي يقول: أنا آسف، أنا آسف، لم أشأ أن يحدث ما حدث. أنا آسف، قبل أن يختفي في غياهب مستشفى السجن، كان صيف الانتظار. أسبوع من الانتظار، انتظار خبر حول «الحادث»، الحادث الذي نزل علينا كالصاعقة منذ الليلة الأولى، حيث لم نستطع تصديقه. لم نكن نعرف بعد ما تعنيه كلمة غيبوبة. ولأننا نحبّ القصص التي تنتهي نهاية جيدة، فقد تخيلنا أن هذه القصة ستتخذ لها نهاية جيدة في نهاية الأمر. لقد علمونا أن الأميرة مهما طال نومها تستيقظ في النهاية. خصوصًا لو أن الأمير ليس بعيدًا. لقد قصُّوا على مسامعنا كثيرًا من الكذب. لم نكن نريد أن يكونَ الأمير سببًا في نوم الأميرة. الأمر لا يجري على هذا النحو. نفكّر في أن الصحافة تبالغ، لجلب الاهتمام. سمعنا أن برترند كونتا كان تحت تأثير الكحول والأدوية. الأدوية؟ نشكّ في أنهم يقصدون الكاتالجين. نترجمها مخدرات إذن. يضع الصحافيون في الجملة نفسها كلمتي الروك والكحول. يقولون:

«مغني مجموعة الروك الرغبة السوداء». ومن الطبيعي في ذهن المستمعين أن توائم كلمة الروك كلمات مثل الكحول والمخدرات. لا يشكّل هذا صدمة لأحد. الروك شيء مدمر، ومن ثم لا يمكن أن ينتهي إلا نهاية سيئة. الروك خطير. إنه العيش بسرعة والموت في عزّ الشباب. كان بإمكان الصحافيين القول: إن هذه القصة حدثت بين الحفلات التي كانت محور الحديث طوال شهر يوليو. الحفل قاتل. من الأفضل أن يكون الإنسان عاملًا في مصنع، على خط لتجميع القِطع. الخبر الذي سمعناه في الليلة الأولى جعلنا أشخاصًا متشككين. ولأنه حصل في ليتوانيا، جعلنا ذلك نحكم من خلال نزعتنا الفوقية الفرنسية. نقول: إن الأطباء الليتوانيين يقفون بلا شكّ على رأسها وسوف نتلقى تكذيبًا بين لحظة وأخرى، يقلب جميع الموازين. وفي كل الأحوال نحن نرسل أطباء فرنسيين إلى فيلنيوس، وهذه إشارة جيدة لأنهم بالطبع أكثر كفاءة. سوف يكتشفون على الفور ما لا يستطيع هؤلاء الليتوانيون الذين حولها اكتشافه. إن غيبوبة في باريس أفضل من إصابة دماغية في فيلنيوس. سمعنا كلامًا حول عملية جراحية سوف تعتبر المحاولة الأخيرة. أمَلْنا كما يأمل المرضى. نأمل، نفكر في أطفال ماري ترينتينيون. لم نعد نرغب بعد اليوم في فتح الراديو، خشية أن نسمع أن العملية باءت بالفشل. نفكر في الأطفال وأين يمكثون في الوقت الذي تصور فيه (ماما) عملها بعيدًا، عند آبائهم؟ سمعنا أن ماري أنجبت أطفالًا من عدة رجال مختلفين. هنالك من يمتلك معلومات كثيرة. أولئك الذين يعرفون كل شيء، الذين يحرصون على أن تعرف كل الأمور الجيدة. نفكر في جان لويس ترينتينيون، رجل يعجبنا. تقع الحادثة،

ونرى أشخاصًا يقولون: إن هذه القصص هي امتياز النجوم. النجوم فقط يعيشون في الفنادق. النجوم فقط يجولون في فيلنيوس في قلب شهر يوليو، عوضًا عن أن يكونوا في «غراند موت». النجوم فقط يشربون الكحول إلى حد أن يصبحوا مجانين، وينبطحوا على الأرض حتى السابعة صباحًا. يسمح النجوم لأنفسهم بفعل أي شيء، بكسر حمام غرفهم في الفنادق، بقذف الحوض من النافذة، بالأمر بإحضار سيارة أجرة في الحالات القصوى للهروب من الحريق. نرى أشخاصًا يحملون كراهية حقيقية للنجوم. ينظرون إليهم باشمئزاز قائلين: «وهل يجب أن نشفق عليهم أيضًا». نرى أشخاصًا لفرط غيرتهم يؤكدون أنهم يفضلون حياتهم على حياة الفنانين. يقول: إن تغيير النساء، السفر، القيام بحوارات صحافية، كلها أمور لا تهمّهم. إنها آخر ما يهمهم في الحياة. يقولون: لو أن كل ذلك سيقودهم إلى نهاية ابن «ديبارديو»، فكلّا، شكرًا جزيلًا. بتر ساق أمر لا يحدث على أية حال مع أي شخص. تقع الحادثة ونشعر أننا قريبون جدًّا. لسنا نجومًا، نحن أشخاص نعمل كل يوم، نذهب إلى السينما، نشتري أسطوانات، نتسوق في مواسم التخفيضات. لسنا نجومًا، نأكل أحيانًا في كافيتيريا «غاليري لافايات»، ونشعر أننا قريبون جدًّا مما حدث. لا نعرف ما الذي حدث بالضبط، نتجاهل كل الدراما. ومع ذلك نحن في قلب الزوبعة. نمتلك نفس السنّ، نفس المتطلبات من الحياة، نفس التعنت. نحن قريبون جدًّا بلا شك لأننا مشينا قبل قليل بجانب الموت، وطفونا للتوّ فوق الهاوية. أردنا بشدة أن تستيقظ ماري من غيبوبتها، لكيلا نعيش هذا مجددًا، ولكيلا يعيش برتراند بدوره هذا. لأننا لن نستطيع قبول أن يكون الموت

على الطرف الآخر من طريق الانتظار. أن ننتظر يعني أن نأمل. وإلا فلماذا ننتظر؟

مرّت الأيام، والليالي صامتة. في الصباح كنا نريد معرفة أي خبر جديد عن ماري. كنا خائفين طوال الوقت. كنا في مكان برتراند كانتا، الذي خرج من لا وعيه، وفتح عينيه أخيرًا. أصبحنا برتراند كانتا الذي ارتكب عملًا جنونيًا، وعليه أن يتقبّل الآن أن هذا العمل الجنوني لم يكن حلمًا. تقمصنا برتراند ورفضنا الحقيقة. رفضنا أن نكون جزءًا من الحقيقة، بل ورفضنا أن نكون شخصية رئيسية فيها. حافظنا على أعيننا مركزة في الأرضية وصلينا في الوقت الذي كان فيه برتراند يصلّي. حتى وإن لم نكن مؤمنين جيدين، كان من المستحيل ألا نتضرع له، لأننا لم نكن نعرف إلى من سنلتجئ.

«لا تسمح لماري أن تموت. اجعل تلك الليلة المشؤومة كأنها لم تحدث. اجعلني أعود بالزمن إلى الوراء. بعض الساعات فقط إلى الوراء. لا تجعل المرأة التي أحبّ تُؤخذ مني. اجعلني أعود رجلًا. اسمح لي أن أطلب مغفرتها، مغفرتها هي».

الأيام تمرّ، ولا أحد يفهم سرّ هذا الغضب القاتل. من أين أتى ذلك الغضب؟ لا أحد تجشّم عناء أن يفهم. كنا نسمع عن إحصائيات تخص نساء تعرضن للقتل. الألم البشري يتحول إلى إحصائيات، كالعادة، الأشخاص الذين تعرضوا لحوادث سير يصبحون أرقامًا على جداول الوزارات. قصة برتراند كانتا وماري ترينتينون ستنتهي بأن تكون موضوع دراسة سوسيولوجية. كان أمرًا بغيضًا.

مرّ الصيف وكنا نسمع من وقت إلى آخر عن المحاكمة التي يجري التحضير لها على حدود أوروبا. ثم ظهر كتاب نادين ترنتينيون الذي خلف شعورًا بعدم الارتياح بمجرد صدوره، رقم المبيعات الضخم. مرّ الخريف. لم يعد أحد يضع موسيقى «الرغبة السوداء» على أي موجة إذاعية، حتى في بيوتنا لم نجرؤ على الاستماع مجددًا إلى «وجوه، ملامح». شعرنا أننا ممنوعون ومقيدون بشكل تام. لم نعد نجرؤ على سماع صوت برتراند كانتا، كنا نخشى من سماع نغمات ما سيحدث، كنا خائفين من مغبة البحث عن الدليل داخل الصوت، حبة الرمل، كنا نخشى الأسوأ أيضًا، وهو عدم سماع شيء على الإطلاق، وألا نفهم شيئًا مما سوف يحدث. لم نعد نرغب أكثر في مشاهدة الفيلم الذي لعبت فيه ماري ترينتينيون دور كوليت على التلفزيون للأسباب نفسها.

لقد خشينا مشهد الوجه الذي كنا نتتبعه في أبسط ارتعاشاته، وكنا نتفحص هذا الوجه بحثًا عن بريق يخون الحب المجنون ثم دراما الحب. بمثل هذا الضيق كنا نتصفح المجلات، كنا نرى لقطات جرى أخذها أثناء تصوير الفيلم في ليتوانيا، هنا ماري وهنا برتراند، في هذه الصورة بعد يوم من العمل، ونقرأ تعليقات الصحافيين الغبية، نحسد ماري وبرتراند، لم نعد نشير إليهما إلا بأسمائهما، كنا نحسدهما لأنهما عاشا هذا الشغف، الذي بالكاد يمكن لمحه في أعينهما، هذا إذا أردنا أن نكون موضوعيين، لكننا نريد أي شيء عدا الموضوعية، نريد أن تدمرنا قصص حب الآخرين، ومثل العادة لا نرى إلا ما نرغب فقط في رؤيته ولا يقفز إلى أعيننا سوى ما

نريد إظهاره لأنفسنا. لهذا السبب نتحول إلى صور داخل المجلات، والتي من دون عنوان عريض تتحول إلى فشل مطلق. بعد ذلك بإمكان زمن الحداد أن يبدأ، نفق الصمت والوحدة الطويل. أفكر في كل الأطفال، أولئك الذين فقدوا أمًّا، أولئك الذين لديهم أب مجرم. أفكر في القصة التي تقال فيما بعد لهؤلاء الأطفال. لا أحد يتحدث عن برتراند كانتا. لقد بدأ عيش ألمه الحقيقي، ودفع ثمنه. أصبح من غير اللائق التفكير فيه كما نفكر في رجل يعيش حدادًا. بهذه الطريقة كنت أفكر فيه، ما زلت أفكر فيه هكذا حتى اليوم. القتل لا يمنع الحداد.

النهار والليل

في أكثر أوقات التشوش حدة، في الوقت الذي أفقد فيه توازني بسبب التردد في هجر المنزل، تطلبُ مني أن أختار بين طلاء أصفر وطلاء رمليّ لغرفة الحمام. رأيتني أخرج من غرفة نومنا على الساعة العاشرة صباحًا، ووجهي شاحب بسبب الليلة التي قضيتها في محاولة إيجاد كلمات مناسبة لتسمية الضيق الذي يتلفنا، وتسألني: أصفر أم رملي. تقول لي أيضًا: إنه علينا تغيير ستارة البانيو، علينا استدعاء العامل من أجل سخان المياه. أنظر إليك وأجيب بأني لا أعرف. تبدو مدهوشًا من أني لا أملك خيارات مفضلة، أنا التي لا تترك أبدًا شيئًا للمصادفة. تضع مخطط الألوان فوق طاولة المطبخ، قريبًا من كأس قهوتي، مستعرضًا أمامي كل الألوان الممكنة: أصفر، رملي، أو الزعفراني، تتردد، تقترب من النافذة لرؤية الألوان في ضوء النهار. تقول: إنه بإمكاننا أن نمزج الأصفر بقطع رخام بألوان محايدة، وتسألني: هل كانت فكرة جيدة؟ ولأني لا أجيب أبدًا، مدهوشة لكمّ الطاقة التي تمنحها للون لن يراه أحد سوانا في نهاية الأمر، تؤكد لي أن هنالك ألوانًا أخرى إن كنت أريد ذلك، في ماركات أخرى. أقول: إنه لا يزال لدينا الوقت لنرى ذلك؛ إننا لسنا في عجلة، وأضيف: إنه لدينا مشاكل أخطر لتسويتها. أمنحك تلميحًا

إلى الليلة الفائتة، والجمل التي تبادلناها، والتي كانت مليئة باللوم والشكوك. أقول لك: إني أجهل تمامًا ما سيحدث الآن، في حين تعود إلى الحمام لأخذ قياسات للجدران، رافعًا عدد عبوات الطلاء التي يجب أن تشتريها. تبدأ البحث عن «المتر» هنا وهناك، تفتح صندوق الأدوات في المطبخ، كل شيء على الأرضية: المشابك، الكماشة، مفكات البراغي، وتسألني هل رأيت المتر في مكانٍ ما؟ أنا التي تعرف مكان كل غرض في البيت. تفتح وتغلق باب الحمام، تروح وتجيء داخل المطبخ، وأنا أحاول تدفئة كلتا يديّ حول كأس القهوة، عيناي يؤلمهما الضوء ومعدتي منقبضة. لستَ مقتنعًا باللون بعد، وتريد أن تعرف هل نختار لونًا خافتًا أو لامعًا. تمرر يدك على جدار المطبخ، هناك حيث تجمدت نظرتي، قريبًا من الرزنامة في المكان الذي نضع فيه إشارات على أيام مواعيدنا وأعمالنا، تداعب الجدار وتقرر أن لونًا به لمعة سيكون أفضل. تنتظر تأكيدي، لكنك أمام صمتي، تؤكد أنه الخيار الأفضل، غير منزعج ظاهريًا بهذا الحوار مع نفسك الذي تقوم به. تترك الأدوات منشورة على الأرضية، أنظف الطاولة، في حين تقيس أنت أحجام المكونات في غرفة الحمام، وعليّ الانتظار حتى يمكنني الدخول للاستحمام. تقول لي: إنه مع ستائر لونها فاقع، الأحمر مثلًا، سوف نحصل على مكان أكثر بهجة. الأصفر والأحمر، قد يكون في الأمر جرأة، أليس كذلك؟ تسأل. أستمرّ في صمتي، وأجيب ببساطة بأن الوقت يمرّ وأنني تأخرت ويجب أن أسرع. بعد ذلك أسمعك تتكلم في الهاتف، تأخذ موعدًا لفحص سخان المياه. تسألني: هل يوم الأربعاء القادم في ساعة متأخرة من الصباح، يناسبني؟ أجد نفسي مجبرة على

الإجابة، لأن السمكري على الجانب الآخر من الهاتف، وبالرغم عني أقول: نعم، يناسبني. أقول نعم وأفكر في أنني قد أكون رحلت بالفعل، في الأربعاء القادم. أبقى تحت الماء طويلًا، لا أرغب في ارتداء ملابسي، يجب أن أذهب لأعود بالأطفال من المدرسة. ألوم نفسي على تضييع كامل الصبيحة، لم أفعل شيئًا. تقف في منتصف الممرّ ولا أريد التماس معك، ألمسك، ستكون قادرًا على حشري أمام الجدار، كما لو أن شيئًا لم يحدث. ستكون قادرًا على إزاحة المنشفة عن جسدي، في حين لم تمرّ سوى بضع ساعات، على بحثنا عن أسباب فشلنا وتوضيحها فيما بيننا. أتساءل: كيف يتردد صدى حواراتنا الليلية فيك؟ ولأنه يستحيل تمييز آثارها، أو معرفة عواقبها، أتساءل: أين الخطأ؟ هل أنا من لا تعرف كيف تقول؟ أم أنت الذي لا يعرف كيف يسمع؟ لست على يقين من أننا نتكلم نفس اللغة. مع أني أحرص على قول كل الكلمات الضرورية لصنع جملة بسيطة واضحة مباشرة دون قسوة، لتعرف إلى أي حدّ لم تعد هذه الحياة تناسبني. أنا لا أتهمك، ولكني أطلب منك ببساطة توضيح ما تشعر به، ثم يأتي دورك أنت في الكلام، تقدم وجهة نظرك، يعلو التوتر بيننا قليلًا، وتأخذ أصواتنا في الارتفاع، ننتبه لكون الأطفال لا ينامون بعيدًا. ثم أواصل أنا، أحاول التقدم في الحوار، أريد الوصول إلى السؤال الرئيسي ولكني أحجم بسرعة عن المخاطرة بطرحه، أترك لك الكلمة، تعيد ما سبق أن قلته، وأنا أيضًا بلا شك، أكرّر نفسي، ينغلق كل منا على منطقه الخاص، تتحول محادثتنا إلى مونولوجين يدوران في حلقة فارغة. وأقترب من القلب، أي من الحب، الاعتبار الوحيد الذي يهمني، أريد أن أعرف أمَا زلت تحبني. وفي كل مرة

يحدث نفس الأمر، تلوذ فجأة بالصمت، وكلما تكلمتُ أكثر نمتَ أكثر. تصبح كلماتي فجأة أقوى أنواع الحبوب المنومة. أقول: إني سأهجرك وتغمض عينيك. أنتظر إجابة عن سؤالي فتسقط حرفيًا في النوم، مستغرقًا بكامل كيانك فيه، تنطفئ فجأة كما لو كنت آلة انقطعت عنها الكهرباء. بعد ذلك مباشرة تأخذ في التنفس بقوة، وفي صباح الغد تطلب مني الاختيار بين الأصفر والرمليّ. تسألني عما سنقوم به في الأسبوع القادم، في أيّ يوم سوف ندعو والديك إلى بيتنا؟ حيث سنذهب جميعًا في عطلة سوف نهديها لأطفالنا بمناسبة عيد الميلاد.

إخبار الطفلين

سوف نخبر الطفلين أنّ حياتهما ستتغير، بكلمات مراوغة وجبانة، سنخبرهما أن لا يقلقا؛ أبوهما وأمهما يحبانهما، وهذا هو المهم، سوف نكرر هذا. الليالي التي يقضيانها بلا نوم، محاولات إنقاذ العلاقة، أنفاق الغيبوبة المظلمة، الأمل الهارب، كلها أشياء خربت صحتهما وأنهكتهما، ولكنّ أبويهما سوف يتماسكان أمامهما، مبتسمين تقريبًا، وسوف يقولان جملتين، أو ربما أكثر، جملتين أو ثلاث جمل مركبة خصيصًى لهذه المناسبة، سلسلة من الكلمات التي تشرح الحب ونهاية الحب، الحب الذي نكنه لهم، والحب الذي لم يعد يكنه كلانا للآخر. جملتين ستقتلان شيئًا ما بداخلهما، بعدما مات شيء ما بداخلنا. هذا المساء سوف نجمع الأطفال، لكننا لم نستطع أن نقرر هل سيكون ذلك قبل العشاء أم بعده، لم نستطع الاختيار. سوف نجلس أربعتنا في الصالون أو حول طاولة الأكل في المطبخ. فكّرنا في تفادي المساء، بسبب الليل الذي يعقبه مباشرة. أردنا تفادي الصباح، بسبب المدرسة التي ستعقب ذلك، نريد تفادي إتعاس أولادنا، ومع ذلك سوف نؤكد الإحصائيات. سنحاول إيجاد مبررات كافية للانضمام إلى التغييرات الكبيرة التي تفصل الآباء عن الأمهات. سوف نقدم لهم الدليل على أن الحب لا شيء، لا شيء

مما جعلونا نعتقد عنه. سنبدّد أوهامهم، وسنمرر لهم طعم الشيء الناقص. سنظهر أمامهم في يوم جديد، بائسين، مذنبين، مرتبكين. سوف نتمكن لمرة أخيرة من القول: «نحن»، قبل أن نبدأ التحدث بعضنا عن بعض مثل كل الآباء المطلقين، بقول: «أبوك»، وقول: «أمك»، وسنمرّ -خصوصًا- في حديث أحدنا عن الآخر بالضمير الغائب. سنحاول ألا نخون كثيرًا حقيقة انقطاع العلاقة بيننا. ولكن هذه الليلة سنقول: «نحن»، «نحن نريد أن نتحدث إليكم»، «نحن قررنا، (بابا) وأنا»، نحن قررنا ألا نقول بعد الآن: «نحن»، قيد جديد، نوع من الألعاب، نسخة كبيرة للعبة البحث عن الكنز، في عمق الغابة، ستريان، ستستمتعان كثيرًا. (بابا) سيكون من جهة، ومن الجهة الأخرى (ماما)، ولن ترياهما أبدًا معًا، سيكون كل واحد منهما في كوخ، لا تخافا، هذه ليست قصة عقلة الإصبع، (بابا) و(ماما) لن يتخليا عنكما، بل على العكس، سيتقاتلان ليحصلا عليكما، سيتحولان إلى عدوين للاحتفاظ بكما. ستريان، إنها مغامرة كبيرة، (بابا) و(ماما) يحتاجان إلى كل الوقت لجعلكما سعيدين، سيكون لديكما حفلتا نويل وحفلتا عيد ميلاد، وأيضًا لكل منكما غرفتان وجهازا تلفزيون. ستريان كم ستكبران، ستتعلمان تجهيز حقائبكما بمفردكما، وأن لا تنسيا ألعابكما وأدويتكما. ستصبحان مغامري الزمن الحديث، دائمًا في حالة حركة من مكان إلى آخر، بحقيبة صغيرة على الظهر، ستتعلمان السفر بمفردكما، ستصعدان الباصات وتنزلان منها في المحطة الثانية عشرة. ستذهبان إلى الحلاق مع (بابا)، وإلى طبيب الأسنان مع (ماما)، إلى الجدة جيان مع (بابا) وإلى الجدة إيفون مع (ماما). ستريان كم ستنفتح حياتكما، وإلى أي

حد ستتوسع أماكن عيشكما، ستعيشان نفس الوضع مرتين، سيكون لكما الحق أن تبقيا في البحر وبنفس القدر في الجبل، ستذهبان دومًا إلى السينما وستأكلان قدرًا أكبر من المثلجات، وسيمتلك كل منكما بيجامتين. سوف تتذوقان كل المكملات وستصبحان بطلين في التقويم، ستتعلمان عدّ الأيام، نصف العطل، الأسابيع الزوجية، ستصبحان مهاجرين، متوزعيَن بيننا تقريبًا.

سينتظر أبواكما قدومكما بفارغ الصبر، ستصبحان مرغوبين، وعودتكما ستكون بمنزلة حفلة، لن تعرفا روتين الأبوين اللذين أصابهما الملل، المستاءين من حماقاتكما، ومن مشاكل نومكما. ستكونان تقريبًا مثل الأطفال الوحيدين، مع أمكما الوحيدة وأبيكما الوحيد أيضًا. سيُسمح لكما بفعل أي شيء لأنكما تعانيان، لن تسمعا سوى كلمة أنكما مضطربان، ستحصلان على نتائج مدرسية سيئة وسيكون الأمر عاديًّا جدًّا، ستحصلان على نتائج جيدة وسيكون ذلك غير متوقع بالمرة. ستشكوان نوبات الصداع النصفي، وآلام البطن وسيكون هذا منطقيًّا، مهما فعلتما فستكون غلطة أبويكما اللذين انفصلا!

سوف نقترح عليكما زيارة طبيب نفسي، شخص يمكنكما التحدث إليه عن مشاكلكما، لكنكما لن تستطيعا أن تحددا من أي نوع هي مشاكلكما، وسوف تتحسنان. ستركلان زملاءكما في بعض الأحيان في ساحة المدرسة وأحيانًا أخرى سوف ترتطم رؤوسكما بالحيطان، ستقومان برسوم بالأسود والأحمر، دائمًا نفس الحريق، لكنكما ستصبحان أفضل. ستصبحان منقادين لـ (بابا) وكذلك لـ (ماما)، سترغبان في إسعاد هذا وذاك، وستكونان مثالين

في الكياسة، وستكرسان أنفسكما للدفاع عن أبويكما. ستصبحان رُسولين، حيث يعبر كل شيء من خلالكما، ستسمعان جملًا هنا وهناك، أثناء الأكل أو من خلال محادثات هاتفية وستحرصان على أن تصل كل المعلومات، بأمانة تامة، سيتسرب الشك إلى الآخرين من خلالكما بسبب خوفكما. ستعيشان داخل الخوف، تغلقان أعينكما في حفلة المدرسة، عندما يقترب (بابا) من (ماما)، لأنكما لا تريدان رؤيتهما، وهما في الساحة، يقفان متقابلين ويتبادلان أطراف الحديث، ستعيشان داخل الخوف ولكن داخل الأمل أيضًا، الأمل في أن يعود أبويكما للعيش معًا من جديد. ستشعران بشيء غريب، في الليل حينما تستلقيان على أسرتكما، لن تستطيعا النوم مباشرة أبدًا، وأحيانًا ستهاجمكما أفكار معقدة، من قبيل أن كل ما يجري هو خطؤكما، الأطفال هم السبب في تفرّق الآباء. ستحدثان أنفسكما بأنه من الأفضل أن تختفيا ولكنكما ستفضلان تأجيل ذلك قليلًا حتى تصبحا أكبر.

ستفضلان أن تنسيا، ستحطمان الجدران، سيُمسك بكما في كل التناقضات، لا ترغبان في إزعاج غيركما ولكنكما ستخافان من أن تكونا لا مرئيين. ستعيشان داخل هذا التمزق وسيكون هذا سيئًا جدًّا.

ستشعران بالنقص دائمًا وتتمنيان لو تعود بكما الأيام إلى الخلف، ستشعران بالحنين إلى طفولتكما وستتبولان في أسرّتكما مجددًا. سترفضان أن تكبرا وسوف تدور قطعة اللحم في أفواهكما مائة مرة. سترغبان في النوم في غرفة واحدة ولاحقًا على سرير

واحد، الأخ الأكبر والأخت الصغرى. لن تجدا طريقًا إلى النوم إلا والأضواء مشتعلة، وباب الغرفة مفتوح. تريدان النوم معًا وأن تصبحا (ماما) و(بابا)، أن تبقيا متمددين بعضكما بجوار بعض ولا تفترقا أبدًا.

اشتقتُ إليك منذ الآن

يجب أن تغادر السبت القادم من أجل قراءة في مارسيليا، حيث نسيت أن تخبرني بها. خمنت قبل أسابيع طويلة أنه سوف يمكننا أخيرًا تمضية يومين معًا. أن يخصص أحدنا وقتًا للآخر

ربما مغادرة المدينة أيضًا. إخراجنا من الروتين الذي يبدو أنه أثقلك كثيرًا. لقد حزنت بالفعل عندما عرفت أنك يوم 26 أكتوبر، الذي يوافق يوم ميلادي، ستكون في رحلة عمل. اعتدت قضاء هذا اليوم بمفردي، بما إنك في حالة تنقل دائم. قلت لنفسي: إننا ربما نستطيع إيجاد قليل من الوقت في المساء –هذا إذا لم تعد إلى البيت في وقت متأخر جدًا من الليل- ، فنخرج في عشاء رومانسي في أحد المطاعم، المسألة متعلقة بحاجتي إلى استيعاب سنواتي الاثنتين والأربعين. ولكن لا بأس، لقد اعتدت، بمرور السنوات، ألا أبالغ في أحلامي.

عزيت نفسي من خلال إقناعها أن الأمر ليس بذلك السوء، إذ إنه ما يزال لدينا عطلة نهاية الأسبوع. لا أطلب كثيرًا. عطلة نهاية الأسبوع فقط، أي شيء عادي، بسيط، بديهي. طموح طبيعي. أمل أي شخص فرنسي بسيط. اعتقدت أنه سيكون لديك الرغبة في مشاركتي في عطلة نهاية الأسبوع، وأن هذا سيسعدك.

ذهبت إلى حد التفكير بأن هذا الأمر كان أولوية بالنسبة لك. تركت نفسي نهبًا لتوقعات بلا معنى. جنون أليس كذلك؟ تمضية عطلة نهاية الأسبوع مع زوجتك الأمر الذي لم يحدث معنا منذ الصيف. منذ شهرين نحن نعمل بلا هوادة، وأنت تجوب فرنسا من أجل قراءات وندوات، من أجل مقابلة أشخاص مهمين. تمنح وقتك وطاقتك وحبك لكتابتك، ولمشاريعك وقرائك وجمهورك. تعطي حياتك لهؤلاء المجهولين، الذين يمنحونك سببًا للحياة. وثمة أمر منطقي في كل هذا. سوف تلتقي الذين يحبونك، في الخارج، في مدن أخرى، بعيدًا عن البيت. تركز من أجلهم، تفكر فيهم، تعدّ مختارات من النصوص، وتقبل أن تجيب عن أكثر الأسئلة خصوصية. أنت محلّ انتظار، موضع رغبة، إنك شخص فريد. أنت موجود لأن عملك الإبداعي موجود. أنت سعيد بعيدًا عن المنزل. وطبعًا عندما تعود متعبًا رغم اطمئنانك، لا تلقى الاستقبال الذي تتمنى أن تلقاه. تتخلص من سترتك الجلدية التي تليق بك كثيرًا وتضع قدميك في خف البيت الذي مع كل تحرك يصدر صوتًا. تعيد ابتساماتك، وتفكر بضجر في فضلات القط. لست بطلًا بعد الآن، أو كائنًا استثنائيًا. الكاتب الذي بدونه لا يجد القراء -والقارئات خاصة- معنى لحياتهم. تعود زوجي وأنا زوجتك، ويتوقف العرض. تعود مجددًا أبًا لأولادك. تعود الشخص الذي عليه اتخاذ قرارات تافهة أتركها لك، أتفه من اختيار عبارات الإهداء التي تكتبها على أولى صفحات رواياتك، يجب أن توافق على بنود عقد تأمين السيارة، عليك أن تواجه كومة البريد، ونتائج تحاليلك الطبية. عندما ترجع إلى البيت، بعد سماعك يومًا بعد يوم، إلى أي حدّ كتابك

مميّز ومهمّ، إلى أي حد تساهم في تقدم تاريخ الأدب والإنسانية، فإن قصة أخرى تبدأ، قصة بسيطة لا علاقة لها بعالم الكتابة. إنها قصة عادية، قصة رجل وامرأة رُزقا أطفالًا. إنها نفس القصة التي يستطيع عيشها الريفيون في أقصى الجنوب الغربي، الصرافون في السوبر ماركت أو ناخبو الجبهة الوطنية، هذه القصة العادية التي نتشارك فيها حتى مع الأغبياء، كما تقول، هذه القصة التي تسخر منها، التي لا تحظى بأي احترام منك، أنت الكاتب الكبير. إنك تستحق أكثر من عائلة، زوجة وأطفال ينتظرونك، هم رهن إشارتك، القادرون على تحمل أسوأ ظروفك وأن يتعودوها، دائمًا، غيابك، حاجتك إلى العزلة، حريتك، كي تستطيع عيش إلهامك حتى آخره. إنك تستحق أفضل من مجرد امرأة لا يميزها شيء، ليست ممثلة في السينما أو صحافية. امرأة تعمل كموظفة خدمات اجتماعية، لا شيء يستحق عناءك بالتأكيد! لكنها تحبك مع ذلك، هل تستحق أكثر من امرأة تحبك؟ من تعتقد نفسك؟ لقد مرت أعوام وأنا أقوم بتكييف إجازاتي مع أوقات تفرغك، أعوام وأنا ألغي عطلات نهاية الأسبوع لأن لديك التزامًا -التزامات تنسى دائمًا أن تحدثني عنها، فجأة، ندوة هنا، وأخرى هناك، أو رحلة طارئة إلى إيطاليا- أنت لا تستحق المغفرة. شهور طويلة وأنا أتلاعب بمواعيد عملي، لأوصل الأطفال إلى حصص الجودو، دروس الغيتار، أعياد الميلاد. تخليت منذ وقت طويل عن حضور الحفلات الموسيقية، دعوات الغداء في المدينة، لأن عليّ مواجهة مسؤولياتي، طبخ الوجبات، أخذ الأطفال إلى النوم. ولكن أيضًا، لأنه مع الوقت، فهمت أنني لم أعد منجذبة إلى ما يلمع في الخارج، وأوهام اللقاءات العقيمة، والحوارات

التي يُفترض أن تغير العالم، ونفاق تبادل الأفكار العبثية. فهمت أنني سئمت من الظهور بوصفي زوجة «الكاتب الكبير». تلك التي تخجل أنت من الظهور معها، لأنها لا تملك شيئًا لتُظهره. ليس لديها شيء مما قد يبدو لك نافعًا. لدي الكثير من السهرات التي عم فيها الصمت ما إن أعلنتُ عن وظيفتي؛ مساعدة اجتماعية، آه نعم، يقولون: يجب أن يكون عملًا شاقًا، لا بدّ أنك تقابلين جميع أصناف البشر. ثم ابتسامة صفراء تعقب الحديث المؤدب، وبعد مرور الملائكة، تعود جميع الأنظار لتتجه إليك. أنت الذي من خلالك يحدث كل شيء. لذلك فصلت نفسي، طبعًا بالتأكيد، لم أعد نفس الفتاة التي قابلتها في عرض آخر فيلم تايواني، وأقرب حفل للموضة، لقد توقفت عن الدفع لجليسات الأطفال لحضور حفلات الأوبرا التي أقضيها نائمة. وعندما كنت تعود إلى البيت، يكون حديثي في أغلبه مزعجًا. لم يعترض طريقي في الصباح حتى مدير الشؤون الثقافية للبلدة، ولا المسؤول عن البرمجة في مهرجان برلين، لا باتريس شيرو، ولا جولييت بينوش، بل ولا مدير مركز أثينا الثقافي. كلا، لقد رأيت الجارة القاطنة في الدور السفلي والتي كانت تشتكي تسريبًا في الماء آتيًا من عندنا، تسوقت وفكرت في شراء المشروب الروسي الذي تحبه، قابلت مدير المدرسة للتكلم حول مشاكل توماس. وتواصلت مع والدتك على الهاتف لوقت طويل، حيث أطلعتها على آخر أخبارك، وطمأنتها إلى أي حد تسير الأمور بشكل جيد. تكلمنا طويلًا إلى حد أن اضطررت إلى التخلي عن الرواية التي أردت قراءتها الليلة. لأن القراءة هي المهرب الوحيد الذي تبقى لي. وأنت تفهم لماذا. يمكنني الاسترخاء على سريري

بعد يوم من العمل، بعد أن أقول للأطفال: «تصبحون على خير»، أستطيع أخيرًا، بعد الساعة التاسعة ليلًا، أن أفكر في نفسي. ولأنني وحيدة في سريري والصمت مخيم على الشقة، ليس عندي سوى شيء واحد لأقوم به: فتح الكتاب الذي يجعلني أنسى أني أشتاق إليك. أحب قراءة الروايات، إلى حد أن أصبحت متخصصة في الأدب المعاصر، وهو الشيء الذي ما يزال يربطنا، والشيء الذي يجعلني أرى نظرة الرضا في عينيك. أنا أول من يقرأ مخطوطاتك، أنا تلك التي لا تتردد لحظة واحدة أن تقول لك إلى أي حد تكون أحيانًا بارعًا، تلك التي يجب عليها، رغمًا عنها، أن تعطي حكمًا دقيقًا، مفصّلًا، مدعومًا، ذكيًا، تلك التي تهاجمها لتخرج من فمها في النهاية كلمات المدح. إنها طريقتي الوحيدة لأثبت وجودي أمامك: أن أكون قارئتك الأولى، تلك التي تقيس معها مدى موهبتك، والتي تلعب معها لعبة السلطة. أنا مرآتك. تقرأ مقاطع من رواياتك بصوت مرتفع في غرفتنا المشتركة، في الوقت الذي أرغب به في ممارسة الجنس معك. لذا ومن أجل الانتقام، أذهب إلى نصوصك، حيث أمتلك حسًّا نقديًا أستعمله معك حتى الموت. أجعلك تدفع ثمن تجاهلي. أقول: إن التصاعد الدرامي بطيء جدًّا، وإن الكتابة ضعيفة، وإن الصور والمفاهيم النمطية كثيرة جدًّا. أقول: إننا كقراء لا نصدق ذلك، إني لم أحب النهاية ولا البداية ولا الحوارات. أقول أي شيء. في كل الأحوال أنت لا تكترث لرأيي، لم تسألني عنه من الأساس لتأخذه بعين الاعتبار، لكني أفعل ذلك لأثبت وجودي. تريد أن نتحدث عنك، عن نصوصك، عن اختيارك للكلمات، عن النسق، عن تفاعل الشخصيات. عندما أبدي تحفظات، فذلك يعني

أني لم أفهم. تصرّ على التفكير أنني لا أفهم ما تكتبه. لستُ في مستوى «الكاتب الكبير» بكل تأكيد، لإدراك دقة عمله. بدلًا من ممارسة الجنس مثل كل الأزواج الآخرين، صرافي السوبر ماركت، والريفيين في أقصى الجنوب الغربي، وناخبي الجبهة الوطنية. بدل ممارسة الجنس مثل الأغبياء، نحن نقضي ليالينا -عندما تكون في البيت- في قراءة نصوصك داخل غرفتنا، وتحليلها، وتشريحها، بدل أن نتصرف مثل فرنسيين عاديين، كلا، نحن نمارس الأدب. ومن ثم لن نسارع إلى ممارسة الجنس بمجرد إطفاء النور. أي نقص في الإنسانية هذا؟! أي روتين؟! لن نتصرف مثل عامة الشعب. إنك تستحق الأفضل، أليس كذلك؟ أنت تستحق أفضل من إصلاح تسريب الماء ورمي كيس القمامة.

تستحق أفضل من امرأة مثلي، وبالفعل من الأفضل أن تغادر يوم السبت. لا يمكنك إفلات فرصة للقراءة، ستجني منها الكثير من المال، بالنسبة لك. عطلة نهاية الأسبوع هذه كانت الفرصة الوحيدة لتمضية الوقت دون وجود الأطفال -ما دمتُ سأذكرك أن عليّ أخذهم إلى منزل والدي من أجل عطلة أعياد جميع القديسين- ولكن الوقت يمضي سريعًا، ولم تنتبه لقدوم العطل. كنت مأخوذًا كليًا بعالمك. تستطيع المغادرة يوم السبت ومتى أردت أيضًا. سوف أرتب عطلة نهاية الأسبوع بدونك، بعيدًا عنك وعن البيت، ربما في باريس لألتقي بيار وأليس. سوف أرتب عطلتي دونك وبلا شك كل حياتي بدونك. أشتاق إليك منذ الآن ولا أفهم لماذا تركت كل هذه الفوضى تترسخ. ما يزعجني فعلًا هو أنه سيكون عليّ من الآن

فصاعدًا شراء كتبك، إلا لو أرسلتها إليّ مع إهداء جميل. سوف أصبح إحدى قارئاتك الغريبات إذن، وربما عندئذ فقط، سوف تنظر إليّ أخيرًا كامرأة تستحق أن تكون لها.

المكان الصحيح

استطعت التفوه بهذه الجملة الصاعقة. تجرأت على القول: إني نسيته. نطقت جملة صغيرة جدًّا. اتهمتني بأنني أواصل العيش كما لو أن شيئًا لم يحدث. كان لومًا. كان أسوأ أنواع اللوم الذي يمكنك توجيهه إلي يومًا.

فهمت أن لا أحد، حتى أنت يا أبي، يمكنه أن يعرف كيف أتصرف مع الغياب. ولكني اعتقدت أنك تعرف، وأنه بإمكاننا أن نُعفي أنفسنا من الكلمات. معك حق، لعلي طلبت منك أكثر مما تقدر عليه. أردت أن تعرف بنفسك دون أن أحتاج إلى أن أقول. طمستُ كل المسارات. وما من شيء مكتوب على جبيني. ما عدت أتكلم عنه أبدًا. كل ما أفعله هو إعطاء تلميحات بعيدة جدًّا. لا أشتكي أبدًا. إلى حدّ أن أبدو أحيانًا في مزاج جيد، أعذرك.

تمكنت مجددًا من إيجاد تعصّبي تجاه الحياة، التي تجبركم على انتخاب شيراك، التي تحصركم داخل الزوايا. ألعب اللعبة. أعرف أن الوقت المنطقيّ قد نفد. إنها العلامات التي ندرك أنها تنبعث منكم بكل براءة. لا أريد أن أعارض المسار الثابت للأشياء. يستغرق التهاب الحلق ثمانية أيام، وعشرة للزكام، وعامين بشكل عام لفقدان الرجل الذي نحب. وبخلاف هذا سوف تتحول الحياة

إلى فوضى. إذن، بصفتي مواطنة صالحة، فأنا أظهر وجهًا آخر، لم يعد يناسبه وضع أحمر الشفاه فوقه. أقدم نسخة مطمئنة من نفسي تطارد النموذج السابق، المنكمش، الباهت، المدمَّر. لن أكون أبدًا مصدر قلق، أو منبعًا للإزعاج. لن أكون الضحية التي يجب رعايتها. سأعفيك من تحمل مسؤوليتي يا أبي، لا تخف عليّ أبدًا. سوف أصلح جميع أعطابي بنفسي.

ولكن هذا الوجه الجديد لا يبدو مناسبًا. لا يناسبك على ما يبدو. لأنه قد يوحي كما قلت لي، بأنني مرّرت خطًّا على قصتي وشطبتها. إنك تتهمني بالنسيان، ومن ثم بالخيانة. لا شيء مناسب أو متسق مع وضعي، أعرف ذلك. لا البقاء في الحزن ولا الخروج منه عبر رسم طريق جديدة. عليّ اختراع مكان غير موجود، إنه مكان الموت، حيث يجب أن أبقيه قريبًا مني دون أن يكون مرئيًّا، لا حاضرًا بقوة ولا غائبًا تمامًا، ليس حيًّا بقوة ولا ميتًا كثيرًا. عليّ اجتياز اختبار القوة، وحلّ معضلة لا حلّ لها. ما زال الجميع ينتظر مني هذا، أن أجد التوازن الصحيح، والمزاج الصحيح، وأقف عند المسافة الصحيحة.

عهد يتماشى مع الجميع. عليّ أن أرضي الجميع، يجب أن أستمر في الإخفاء، موازنة الأمور وتشويه الحقيقة. أصابعي أصابع جنية، وعندي كل القوى الخارقة. أستطيع القضاء على طمأنينتك يا أبي، بمكالمة هاتفية واحدة، وتشويش صفاء سمائك. أستطيع عكس ذلك منحك الأمان، وإعطاءك الدليل على قوة الحياة التي تتمثل في استمرارها رغم كل شيء. أليست خرافية ورائعة هذه القوة الحيوية

المدهشة؟ بإمكاني جعلك تعتقد كل ما أريدك أن تعتقده. أنا مرآتك الممتدّة وأنت رهينتي. أستطيع المكوث في منزلي مدعية الانشغال بالترتيب لعطلتي المقبلة، وسوف تُدهش من كوني استعدت الرغبة في السفر، وإلى روما فوق ذلك حيث أردت العودة منذ وقت طويل. ستكون مسرورًا بشكل مضاعف عندما أطلب منك أن تعتني ببابلو لأنني أريد السفر وحدي، أو من يدري؟! ربما يرافقني أحدهم. ستعتقد أني على خير ما يرام، (برافو)، ومع الوقت سأصبح أفضل. ستعتقد أني أمنح نفسي حريات تعبّر عن الاستقلالية. تمتلك فكرًا منفتحًا، وتريد كل ما هو جيد لي، غير أن الجيد يمرّ بالسيئ. لديك مبادئ تدافع عنها. لست حقيرًا وتقول: إنك تفضل رؤيتي مبتهجة بشأن الذهاب في إجازة بدلًا من الانهيار في غرفتي. إنك تفكر هكذا بالفعل، غير أن عامين بالكاد قد مرَّا وأنا أبدو منشغلة كليًا في الترتيب لإجازتي في روما، وهذا يصدمك. هذا يريحك ويزعجك في الوقت نفسه. من حقي أن أستمتع، ولكن بلا مبالغة. لماذا لا أحاول الذهاب أولًا إلى بريتاني؟ سيبدو الأمر مثل رحلة نقاهة، في حين ترنّ روما مثل شفاء مبكر. والشفاء -مثلما يقول الجميع ويكرر، وأنت أولهم- لا وجود له.

بإمكاني إذن أن أقولها هنا، ما دمتَ تجبرني، أستطيع القول: إني لا أبالي بروما، لا أبالي بروما كما لا أبالي بكل شيء. إذا كان ما تريد سماعه هو لماذا أقوم بكل هذه التمثيلية؟ فقل لي أولًا: هل كنت ستتحمل رؤيتي قادمة إليك أجرّ ساقيّ بلا أهداف أو مشاريع، دون موضوع للحديث؟ دون ابتسامة؟ بالطبع لا، لن تتحمل ذلك،

وسوف تقول لي: يا ابنتي يجب أن تقاومي، عليكِ أن تستجمعي نفسك والنظر إلى العالم حولك، وسوف تمسك بي عندئذ من كتفيّ وتقوم بدورك كأب. كنت ستهزني، تجعلني أعدك بالتفكير في النظر إلى الأفق. وستكون على حق، ستكون إلى جانبي من أجل هزّي وستفعل، ستفعل، ستكون موجودًا أخيرًا، ستكون أهمّ منه. ستعود رجل حياتي الأول. ولكن يا أبي، أنا لم أترك لك مكانًا. لقد كنت خائفة. لقد منعتك من أن تكون أقوى مني. هززت نفسي بنفسي، ولعبت كلّ الأدوار. أردت أن أؤكد، مرة أخرى، أنني المرأة التي تستطيع النجاح في كل شيء، حتى حدادها. لقد خفت من أن يواسيني أحد أو شيء.

أتذكر أمي، التي صُدمت يوم رأت برناديت لافون على شاشة التلفزيون، بعد وقت قليل من اختفاء ابنتها بولين. كانت طبيعية جدًا، في الوقت الذي كان الجميع ينتظر فيه رؤية الأسى على وجهها. كانت برناديت لافون تقوم بالترويج لفيلمها الجديد، وأمي كانت مجروحة إلى الحد الذي جعلها غير قادرة على الاستقرار في مكان واحد من كنبة الصالون. أدانت تلك المرأة، ودفعها ذلك إلى حدّ الاستنتاج أنها لا تحبّ ابنتها. قالت: «عند هؤلاء الناس، لا وجود للمشاعر»، وأنا وجدت هذه الملاحظة متطرفة مع أني لم أكن بعيدة في تفكيري عن الشيء ذاته. لم أكن أعلم أن بإمكاننا العيش، والعمل، وإلقاء النكات، ومرض الحزن يأكلنا من الداخل. كنت أجهل أن الكائن الذي يختفي يمنحك وجودًا من خلال غيابه. لم أكن أعلم أن للموت هذا الكرم وهذه الروح التي تمتاز

بالسموّ. لم أكن أعلم أن مكان الموتى يتحرك، وأنه يتبع الخطوط العريضة، وأنه يصبح خانقًا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يكون سريًّا إلى درجة إثارة الحيرة. كنت أنظر بشيء من الاشمئزاز إلى برناديت لافون، داخل بلوزتها الرقيقة، دون أن أشك ولو لحظة واحدة، أنها تعاني صعوبة في التنفس، وأنها ستتناول بلا شك أدوية مهدئة لتستطيع النوم تلك الليلة. لم أكن أعرف ما يعنيه منزل فارغ، طفل لن يتحدث بعد اليوم بمستجداته، رجل لن ينظر إليك أبدًا بعد الآن. كنت أجهل معنى أن يكون الواحد مدمّرًا كليًّا ولكنه يركز في العمل، محطمًا وعلى وجهه ابتسامة، حزينًا وحاضرًا في حياة الآخرين، يشعر بالحنين إلى شيء مضى وعاشقًا في الآن ذاته. وأنت أيضًا، لا أظن أنه لديك أدنى فكرة عن ذلك. من السهل رمي هذه الجملة، أن تقول: إنني نسيته. من السهل أن نستاء مما نرى. لكنه يستمر في الحركة يا أبي، مثل قلب يخفق. إنه هنا، غير متوقع ولكنه في حركة دائمة. منقاد أو متمرّد. رقيق أو وقح. إنه يعيش بداخلي الآن دون أن يُغرقني. أحمله مثل جنين.

العادة

ما زلت أتذكر أول وجبة غداء أعددتها له. بعد هذين العامين من الحزن والوحدة، يأتي رجل لتناول الغداء في بيتي. يأتي رجل ليدخل حياتي. لم يكن يعرف بعضنا بعضًا جيدًا، تبادلنا قبلة صغيرة داخل سيارته، عندما كان يقلني إلى البيت. تركني في أسفل البناية التي أسكن بها، وأنا لم أستطع أن أطلب منه مصاحبتي. عندما كان يقبّلني قال بنبرة منزعجة: إنه لم يعد معتادًا على الإطلاق احتضان امرأة بين ذراعيه، لذلك ندّ عنه تصرف أخرق، عندما ضرب مرآة الرؤية الخلفية بمرفقه. لكن كالعادة، وعند بداية كل علاقة، تكون التصرفات الخرقاء أشبه بكنز. كنت مستندة إلى حافَة النافذة المفتوحة والجملة التي نطقها للتوّ تُحدث صدى غريبًا بداخلي. ليس لديه العادة أبدًا.. كان يعني بلا شك أن كيانه كان ضامرًا، وأن أطرافه متيبسة. لعله أراد أن يقول: إنه شعر أن جزءًا منه يعاني البتر. هذه الجملة الصغيرة التي أفلتت منه، ليعتذر عن حركته الخرقاء، تجعلني أفهم أنه متاح حاليًا، وأن امرأة كانت في حياته لوقت طويل في الماضي، حيث أجهل كل شيء عنها وعن قصتهما معًا. ولكن لأكون صادقة، لا أحب كثيرًا أن يجانب الاعتياد الحب. بدل أن أصمت وأكتفي بالابتسام بداخلي، نطقت بدوري بعض الكلمات،

التي بدت تافهة ظاهريًا. لأنني أكدت الحقيقة التي كشفها لي للتوّ بكلمة «وأنا أيضًا» الغبية. كنا متعادلين، فقد لخصنا الوضعية بهذا الشكل: كائنان ضائعان لم يعودا معتادين أن يُحِبّا أو يكونا محبوبين، عائدان إلى الحب، عائدان من مكان بعيد جدًّا. كائنان كانا في حاجة إلى كل هذا الوقت للتعافي من الحب.

صعدت إلى الطابق السادس، وعجزت عن إغماض عينيّ طوال الليل. بقيت مستلقية على سريري، أكرر في ذهني كل مراحل السهرة بأدق تفاصيلها. اللحظة التي ظهر فيها، الوقت الذي بدا لي أبديًّا قبل أن ينظر إلي، الوقت الذي مرّ قبل أن يراني. أتذكر نفسي مفتشة عن عينيه، أتتبع نقاشه في الجهة الأخرى من الطاولة، كما لو أنني غير موجودة. ثم اللحظة التي حدث فيها، أو حدث فيها بالنسبة لي، أن انقلب كل شيء حولي في المكان، سقط كل شيء فوق السجادة، اللحظة التي انقطع الصوت فيها، اللحظة التي أصبحت الأحداث تسير ببطء شديد، اللحظة التي تتمطط، والدقائق اللانهائية، الخُطّاف غير المرئي الذي يشد وجهًا إلى الآخر، العيون التي يبحث بعضها عن بعض بهلع، الضوء الذي لم يعد ينير سوى جسم واحد، ثم الخوف، الخوف المفاجئ، عندما تقترب العينان مني، قريبًا جدًّا من شعوري بالبؤس، بعدم الجاهزية، ليس الآن، ليس على الفور. الخوف من ألا أستحق ذلك. ثم أخذت في الضحك دون سبب معين، وفي ثانية واحدة تحولت إلى شخص آخر، وهو شيء لا يمكن استيعابه أو فهمه، أصبحت في الهالة التي تنيرني، شخصًا مرحًا، خفيف الظل، مضحكًا، أما من حيث المبدأ فأنا فتاة حزينة. أرى

نفسي مجددًا أمام الغلال والخضر، أبحث عن الإلهام لإعداد غداء له. في البقالة التي أذهب إليها يوميًا والتي منها أملأ سلة المشتريات بشكل آلي، أجد أني هذه المرة أكتشفها مجددًا من أجله، وأنني صرت أرى الأشياء بشكل مغاير، مأخوذة بالشعور الممتع كوني هنا. لا أعرف ما الذي يحبه. لا أعرف شيئًا. أتقدم داخل الأروقة تدهشني الوفرة والخيارات اللانهائية، أشعر بالارتباك، الوقت يمرّ وعليّ القيام بخيارات جيدة وسط هذه السلع. أحمل سلة بلاستيكية في يدي وأرغب في كل ما تراه عيني، أتردد أمام كل شيء، أتخيل تركيبات جديدة من الأطعمة، أتخيل صحننا، الكرز في الشتاء، فطر الخشب، العليق البري. أتخيل طبقًا خارجًا للتوّ من الفرن في المطبخ، الطبخة التي يجب مراقبتها في نفس الوقت الذي أستمع فيه إلى قلبي الذي في حالة تأهب. أتخيل أنه يجب توفير اللحم، كل الرجال يحبون اللحوم، خصوصًا الحمراء. لكن في البداية، هنالك شيء يزعجني في لحم البقر. وحشي جدًّا بالنسبة لليلة الأولى. اخترت لحم العجل إذن، قطعة رقيقة، سنأكلها مع قليل من الكريمة والفطر. لا بأس من تجاوز الفرن هذه المرة، سنستعمله في المرة المقبلة.

لم أُرِدِ الوقوع في فخّ الانشغال بالطبخ ونسيان تجهيز نفسي قبل كل شيء. ترددت بين تنانير كثيرة، ولكن لأن الجو كان باردًا بعض الشيء في الشقة، فقد اخترت الملفوفة من بينها، مع كنزة صوفية ناعمة جدًّا. قضيت بعض الوقت في غرفة الحمام مفكرة هل عليّ وضع خط من الكحل أسفل عيني، أم سأبدو أفضل بمظهر بسيط. لم أكن قررت ذلك بعد عندما رنّ جهاز الأنترفون. كان لدي

فقط أربعون ثانية قبل أن يظهر أمامي. فعلت في أربعين ثانية ما لم ينجح قط شخص في فعله، حولت مطبخًا من ثلاثة أمتار، إلى فضاء حارق من الرغبة والتخوف المختلط. طبعت ارتعاشي على كل غرض حولي ولطخت تنورتي قبل أن أفتح الباب.

قبلني كما يحدث في الأفلام، قبل أن ننتبه لإغلاق باب البيت، حينها لمبة الممرّ الأتوماتيكية انطفأت. شعرنا بالارتباك على المدخل مع اتساعه، لكننا تبعنا تصرفاتنا الخرقاء، مؤكدًا أحدنا للآخر أننا فقدنا العادة. ذهبنا إلى الطاولة دون أن يجرب أي شيء، لم يكن لدي رأي بشأنه. بمجرد أن جهزت الأكل، ملأت صحنينا، قبل الاختفاء لبضع ثوانٍ في غرفة الحمام لتنظيف البقعة على تنورتي. لم أكن متأكدة فعلًا أن هذا الرجل يعجبني. يقول صوته شيئًا ربما يسجل فارقًا مع مظهره. صوته خيب ظني، لكني شعرت أن الوقت مبكر لأتكلم.

لم يختف ارتجافي، لقد عزوت ذلك إلى المخاطرة التي تعرضت لها في تحضير هذه الوجبة، وإدارة الطهي، وضمان نضجه، والعد التنازلي، والكريم في آخر لحظة، والاضطراب الذي سيطر على كياني بالكامل، هذا الشعور لم أنسه، بل دفنته بعيدًا حتى لا أعاني بعد الآن لدرجة أن يقظته الوحشية واجهتني بحالة ليس لديّ سيطرة عليها.

كنت في مقابلة شخص غريب، جاء ليحيي الحب ويجعلني هكذا، معرضة لشتى المخاطر. كنت خائفة من أن أحبّ ومن ألا أحب، خائفة من التعرض للخيانة، خائفة من حرق المراحل سريعًا.

نسيت كيف يجب أن أكون أمام رجل، خفضت عينيّ إذن، وتذوقت قطعة اللحم التي أمامي، دون شهية، مشوشة تمامًا.

بدأ الحديث، دون محاولة إثارة اهتمامي فعلًا، قال بشكل عابر: إنه ليس من محبي لحم العجل، وهو ما رحبت به بتساهل الأيام الأولى، مع العلم أن هذه الكلمة بقيت بيننا، إذا كان يجب أن يبقى شيء بيننا. بقينا طويلًا على الطاولة، نشرب النبيذ، لا نعرف بشكل واضح كيف سنكمل هذا اللقاء، لمّا كان الغداء قد استمر لأكثر من ثلاث ساعات، دون أن يتمكن أحدنا من تخيل تكملة لما يجري. ومع ذلك كان هناك فصل ثانٍ، إنه المرور للانتقال من المطبخ إلى غرفة نومي، وهو الانتقال الوحيد الذي بدا ممكنًا. دعنا نقول فقط: إنه لم يجرؤ على الاكتفاء بمجرد التحدث معي، والذي، في رأيي، كان من الممكن أن يكون أفضل مبادرة، ولكن هناك أوقات يكون فيها من الأسهل أن تفعل ما يتوقع منك الآخر أن تفعله. لا تريد الامتناع، لا أحد يعرف لماذا. من الأسهل دومًا القيام بالفعل على تبرير عدم القيام به. رتبت غرفتي بشكل طفيف، وحاولت تجنب المبالغة قدر الإمكان، غيرت اللُّحُف، وتركت بعض الكتب موزعة هنا وهناك فوق المكتب، وأسطوانة أو اثنتين، وصحيفة، وقد أخفيت صورة كانت موضوعة على حافة «الكومودينو» بجانب السرير. مررت المكنسة الكهربائية على السجادة، وتركت بشكل متعمد قطعة ثياب فوق الكرسي. أردت أن يفهم أني فتاة مرتاحة، وقد كانت تلك الطريقة الوحيدة لعدم جعله يشعر بالرهبة. قطعنا الممرّ الذي يصل المطبخ بغرفتي بتحفظ تقريبًا. كان يفترض أن

يتقدم أحدنا ويسحب الآخر من يده بحركة جنون طفولية، كان يفترض أن ممارسة الحب تبدأ حتى من على مدخل الباب. لم يكن ثمة أي شيء باهظ في لعبة بحثنا عن الكنز الصغير، ظل الحزن، لم يكن بعيدًا عن أن يخيم على وجوهنا، رغم تأثير النبيذ. لقد قمنا بكل ما في وسعنا ولعبنا اللعبة بأفضل شكل نستطيعه، وما نزال متطلعين إلى ممارسة الحب مرة أخرى.

وجدنا الإيماءات والحركات، التي حاولنا تطبيقها على الوضع الجديد، لكن لم نقم بأي منها بسبب إلحاح الرغبة، وشَرَهِ البداية التي لا تشبع. لقد مارسنا الحب عارفين أنها المرة الأولى والأخيرة، وهو أمر يمنح حرية ونعمة غير متوقعة، وهذه الكوريغرافيا الغريبة، التي لا تُلزم شيئًا، ولا تُنذر بشيء، فتحت لنا إمكانية الحب بدون قصة حب.

لقد كان من الحساسية بمكان، حيث لم ينم بجانبي، جمَع أشياءه في الظلام وغادر دون أن أرافقه إلى الباب. مكثت في سريري، وقد هجم عليّ شعور شرس بالهجر، مخدوعة من نفسي، وبلا شك غير قادرة على الحب مجددًا. عدت فتاة حزينة، ولم أجد الرغبة في الضحك، عندما كنت أنظف طاولة المطبخ في الغد، ملقية في القمامة، كل ما لم نأكله.

عامي العاشر

حدث ذلك في الساحل الجنوبي. في شهر يوليو. هنالك أمواج تتكسّر على الصخور أسفل الطريق. وهنالك أمّي التي تصرخ بين كلّ عشرة أمتار وأخرى، طالبة من أبي الانتباه لأخي الصغير. كنا نتقدّم وأيدينا محمّلة بثلّاجة يدوية، ومظلّة البحر ومراتب مطاطية. كنا أشبهَ بأسرة في طابور هنديّ، مصطفين بعضنا وراء بعض، وقلقين بعض الشيء. أتذكّر كلمات أمّي، وانزعاجها، وصمت أبي وتغريد طيور الزّيز الثّقيل والحادّ. حدث هذا في العام الّذي بلغتُ فيه سنّ العاشرة. كنتُ قد تعلّمتُ السباحة جيّدًا بدون عوّامات الأطفال، وصرتُ أرتدي لباس سباحة من قطعتين. يجلس والداي تحت المظلّة، يجلس أبي مثبتًا نظره على خطّ الأفق، وهو يدخّن سجائره، وتستلقي أمي، أحيانًا على الظّهر، وأحيانًا أخرى على البطن. نخرج أنا وأخي من الماء فنلفّ جسدينا في مناشف كبيرة وناعمة، عندما يأتي موعد الغداء. نتشارك ما بحوزتنا من رقائق البطاطس والطماطم، وكنت ألاحظ أنّ أمّي لا تخلع نظّارتها الشمسية. بعد ذلك، يتمشّى أبي حتى رصيف الميناء، ويختفي لوقت طويل. أما أمي فتطلب أن أدهن ظهرها بكريم الوقاية من الشمس، ثم تنام تحت أشعتها، ناسيةً أنّ أخي الأصغر لا يجيد السباحة. لحسن الحظ،

أني هنا، ويمكنهما الاعتماد عليّ. عند عودتنا إلى المخيّم، تنشر أمّي المناشف والمايوهات على حبل غسيل كان يربط عربة التخييم بشجرة أوكاليبتوس. يقترح عليّ أبي جولة من لعبة البينغ بونغ. فمع الوقت صرتُ ألعب بشكل أفضل، أتعلّم الضربات المقلوبة، وإرسال الكرة بقوّة.

حدث ذلك صباحًا بعد الإفطار، بعد أن غسل أبي الأطباق وأرجع الخبز والعسل إلى مكانيهما، وبعد أن مسحتُ أنا الطاولة. قالت أمّي: إنّها ذاهبة. تركتنا أمي وابتعدت مشيًا على قدميها. حاملة حقيبة صغيرة وممسكة أخي بيدها. لم تقبّلني، ولم تقل لي شيئًا ذا أهمية. عبرَت الممشى الرئيسي للمخيم، وفهمتُ أنّه ليس عليّ أن أتبعها. وحده أخي الصغير كان يلتفت، وهو لا يفهم ما الّذي يحدث. بقيتُ واقفة أمام باب العربة دون أن أجرؤ على الدخول. كان أبي بالداخل، أما أنا ففي الخارج، وأمّي وأخي يتّجهان نحو المحطّة. لم أجد شيئًا آخر لأفعله سوى أن أطوي المناشف الجافّة وملابس السباحة بعناية. كنت أطويها بشكل مستطيل تمامًا، وأضعها فوق طاولة الإفطار بهذا الشكل المثير للسخرية. وكنت أعيد التفكير فيها في كلّ مرّة أقوم فيها بطيّ الغسيل الناشف. لا شيء يتحرّك داخل العربة. أسمع أبي عادةً وهو يحلق ذقنه، وأسمع صوت الراديو. كنت ما أزال في ثياب النوم ولم أغتسل بعد، أجلس على كرسي قابل للطيّ، في حين يتحرك الجميع في المخيّم بنسق سريع، ذهابًا وإيابًا بين المراحيض والخيام، وهم يقومون بمخططات تخص كيفية قضاء هذا اليوم. أما أنا، فقد نظرتُ إلى أصابع قدمي

ولاحظت أنّ سبّابة القدم اليسرى (أتساءل هل يُمكن تسمية إصبع قدم بسبّابة!) أصغر من سبّابة القدم اليمنى. سمعت وقع خطوات بالداخل، العربة تتحرك. ظهر أبي على الباب. لفتني شَعره الطويل جدًّا وسالفتاه اللّتان تصلان حتى منتصف الخدّين. دعاني للقيام بجولة بالسيارة، وأعطاني قليلًا من الوقت لتحضير نفسي. جلستُ لأول مرة في المقعد الأمامي. تردّدتُ. وتساءلتُ هل تغير مكاني؟ إنني أجرّب شيئًا جديدًا، أكتشفه للمرّة الأولى، وها أنا أرتجل. أشعل أبي سيجارة وأنزل زجاج السيارة. تقدّمَت السيارة ببطء على الممرّ الرئيسي للمخيم، قبل أن تعبر الحاجز الصغير عند مكتب الاستقبال، ثمّ وجدنا أنفسنا على الطريق الذي يمتدّ على طول الشاطئ، ونحن في صمتٍ تام. زاد أبي سرعة السيارة، وتساءلتُ إلى أين نحن ذاهبان؟ تخيّلتُ أننا نتّجه صوب المحطّة لنلحق بأمّي. ولكن لا، لم تكن هناك محطّة على طول الكورنيش ونحن نقود السيارة بنوافذ مفتوحة حتى آخرها، في الجو المنعش ذلك الصباح، تقابلنا الشمس التي ارتفعت في السماء.

لم أسأل عن شيء، ولاحظتُ جيّدًا أنّه لا يوجد شيء طبيعي، تصرّفات أبي، اهتزازات محرّك السيارة، حتّى الناس الّذين لمحتهم على الشاطئ كما لو كانوا يتحركون على شاشة، بلا حياة ولا صوت. كنت كما لو أنّني في فيلم صامت، أرى العالم أمامي بالأبيض والأسود. لم أجرؤ على النطق بكلمة واحدة خوفًا من إفساد جولتنا. التصقتُ بمقعدي في انتظار ما سيحدث، كنتُ أرغب في نسيان نفسي، وعدم وجودي هنا.

قاد أبي السيارة لوقت أطول بوجهٍ جامد، وغائب تمامًا. أوقف السيارة في ساحة صغيرة لإحدى القرى. لم يكن قد نظر إليّ قط، منذ أن غادرنا المخيّم، ولم يكلّمني. كنتُ أعلم أنّه منشغلٌ بشكل كلي بصورة أمّي، وتخيلتُ أنه لا يعرف كيف سيُكمل حياته. جلسنا في الظلّ على تراس أحد المطاعم. طلب أبي فنجان قهوة، وحين تردّدتُ في الطلب، اقترح عليّ الآيس كريم بالشانتيلي، وأصرّ على اقتراحه، كان أكيدًا أنه سيعجبني. لم أستطع أن أرفض، بدا لي أن ذلك سيسعده. بقينا جالسين وجهًا لوجه، رازحين تحت عبءٍ ثقيل يتلفنا. تظاهرتُ بأنّني أستمتع بكأسي المثلّجة، لكنّها ذابت تمامًا حتّى قبل أن أُنهيها. وضعتُ الملعقة في ذلك العصير الوردي والأبيض، شاعرة بالأسف. وقف أبي فجأة واقترح عليّ أن نذهب إلى الحلّاق. قال: إنّه يرغب في قصّة شَعر جميلة. عبرنا الساحة ودخلنا إلى محلّ صغير حيث الحرارة لا تُطاق. جلس أبي على المقعد، وسألني الحلّاق هل أرغب في قصّة شَعرٍ أيضًا. كنتُ أريد مبدئيًّا الحفاظ على شعري الطويل، الّذي يصل إلى منتصف ظهري، لكن الحلّاق أصرّ، عندئذ قال أبي في أُذني: «ستكون هذه مفاجأتنا». ولفّ ذراعه حول كتفي أيضًا.

أظنّ أنّه بسبب ذراعه التي لامسَت بشرتي، قبلتُ أن يقوم الحلاق بقصّ شعري. وبسبب هذا الشعور بالتكامل، في تلك الثانية اللامتوقعة، عندما قرّر أبي أن يعتبرني فتاة جديرة بثقته. بسبب كلّ ذلك الوقت الواجب استغلاله، وقسوة ذلك اليوم من أيّام العطلة، قبِلتُ أن أردّ بقسوة أخرى: سوف أسمح بقصّ

شَعري الكثيف مثل عرف الفرس، وأقوم بهذه التضحية. خرجنا من المحلّ ونحن ننظر بعضنا إلى بعض ونبتسم. لقد ارتكبنا حماقة صغيرة. هو حلق سالفتيه وأنا صرتُ أشبه الصبي. نعم، أصبحت نسخة من أخي. لا أحد بإمكانه التعرّف بنا، فقد غيّرنا جلودنا. رسمنا خطًا يفصل ما قبل عن ما بعد. رسمنا حدودًا يتعذّر محوُها، ومن المستحيل أن نتراجع إلى الوراء. ركبنا السيارة وانطلقنا في الاتّجاه المعاكس. لم أجرؤ أن أسأل أبي عن قصده من الكلام الّذي ألقاه في أذني. عن أيّ مفاجأة كان يتحدّث؟ هل يريد أن يُفاجئ أمّي؟ صرتُ آمل أن تكون أمّي قد عادت، وكنتُ مقتنعة بأنّها ستكون هناك عند عودتنا، تخيّلتُ أنّ القطار فاتَها، أو أنّها غيرت قرارها. ومن دون شك، كان أبي يتخيّل ذلك أيضًا، فقد زاد سرعة السيارة. اشتدّت الإثارة داخل السيارة من دون أن ننطق كلمة واحدة، لأنّنا على يقين أننا نفكر في الشيء نفسه. كان أبي يتحوّل من شخصٍ إلى آخر مختلف مع مرور الكيلومترات، وبدا لي متوترًا أكثر فأكثر، حتى إنه نسيَ أن يشعل أضواء الإشارة. لقد عاد ذلك الرجل الّذي يصعب اختراقه، كما كان في طريق الذهاب، متجاهلًا وجودي. وقد أثارت الكريم شانتيلي بداخلي رغبةً في التقيؤ، ذلك لأنّنا لم نأكل شيئًا. كنا في منتصف النهار حين دخلنا المخيّم، يدفعنا الأمل مثل المجانين، عبرنا حاجز بوابة الاستقبال، وبعدها الممرّ الرئيسي. حاولنا تمييز العربة من بعيد. كنا نتقدّم كما لو أننا في مشهدٍ بطيء، في صمتٍ شديد وخانق. كنا نقترب، أوقفنا السيارة في المكان المخصّص لها دون إيقاف المحرّك. بقي كلُّ شيء على حاله منذ الصباح. وباب العربة كان ما يزال مقفلًا. بقينا جالسين في السيارة

لوقتٍ بدا أبديًا، عاجزين عن القيام بأدنى حركة. ترك أبي المحرّك مشتعلًا مدة أطول. كان ينظر أمامه بثبات، يحدّق في حبل الغسيل والمشابك التي تتدحرج منه. لم يكن يعرف كيف يكملُ الطريق. كما لو أن حياتنا توقّفت هناك، أمام باب العربة المقفل. لم يعد ثمة شيء ممكن. لا الكلام، ولا الحركة، ولا ازدراد اللّعاب. كنتُ أبحث عن أفكارٍ للهروب، كان بإمكاني الركض في اتجاه طاولات البينغ بونغ، لكني كنتُ خائفة على أبي. لا أعرف إن كنتُ أُثقل عليه، ولا أعرف إن كان عليّ أن أبقى. تمنيت أن يقول لي ذلك، أن يُقرّر، كما كان يفعل دائمًا. لكنّه نسيَ أنّه أبي، نسي أنّه البالغ وأنني الطّفلة، وكان لديّ إحساس بأنّ كلّ شيء قد انقلب بالفعل، اختلط، وتحطّم، كل هذا ومحرّك السيّارة لم ينفكّ يعمل، فهمتُ أن الطفولة قد توقّفت هنا، في هذا المخيّم بجنوب فرنسا، ولم أتخيّل شيئًا بعد ذلك.

الأرامل

الأرامل لا يحببن إزعاج أحد. يشكرن، يعتذرن، يقلن: «آسفة». يشعرن بشيء من المسؤولية تجاه موت أزواجهن. لا يردن أن يُشتبه بهن. لا يردن أن يكنّ محلّ شفقة. يطمحن إلى أن يكنّ أشخاصًا مثلك ومثلي.

الأرامل ضائعات داخل أفكارهن. تدور كلمة «لو» على ألسنتهن بلا انتهاء. لو أنه لم يأخذ الطريق الوطنية، لو أنه لم يصعد إلى السطح، لو أنه سمع كلامي، لو أن أمي لم تقم بدعوتنا في ذلك اليوم، لو أنني لم أقبل الدعوة، لو أني لم أتغيّب...

الأرامل لا يضعن أحمر الشفاه ولا يكحلن عيونهن. ليس لديهن جسد ولا شَعر. لا ينظرن إلى صورهن أبدًا في المرآة لوقت قد يدوم طويلًا.

الأرامل يعتنين بالأولاد وحدهن. وعندما يصبح الأولاد بالغين، يعتنين بأنفسهن وحدهن. الأرامل يجب أن يكنّ أمهات وآباء أيضًا. ولأن فرويد قال: إنه لا وجود لأب وأم توفقا في تربية أولادهما، فإن الأرامل يفشلن في تربية أولادهن بشكل مضاعف.

الأرامل يأكلن طماطم زرعها أزواجهن في حدائق بيوتهن. من المستحيل أن يفقدن منها أي شيء حتى الفتات. يصنعن منها معجونًا ومعلبات، وفي السنة الموالية يفتحن العلب ويقلن لأولادهن وهن يقدمن الوجبات: «هذه طماطم زرعها (بابا)». يبتسم الأطفال موجهين إليهن نظرات ثاقبة.

الأرامل يسمعن الموسيقى التي يسمعها أزواجهن، يسمعن البرامج الإذاعية التي يستمع إليها أزواجهن، يقرأن الجرائد التي يقرؤها أزواجهن.

الأرامل يتعلمن تغيير اللمبات التي احترقت، تفقُّد مستوى زيت السيارة، ثقب الجدران، يدركن أنه كان بإمكانهن فعل ذلك من قبل.

الأرامل يتخيلن أن أزواجهن سوف يعودون. يلعبن أحيانًا هذه اللعبة الغبية. يتجملن وينتظرن عودتهم. يذهبن إلى الكوافير ويبتسمن لأنفسهن.

ترتب الأرامل البيت مثلما يردن. لا فوضى. لا شيء ملقى بشكل عشوائي، لا علّاقة مفاتيح، لا محفظة، لا قطع ثياب متسخة، لا جرائد، لا منفضة سجائر ممتلئة. ليس لديهن قمصان أو سراويل لتُكوى.

تخاف الأرامل من المرايا، يخفن الانعكاس، الظلال، الصور المهتزة. لا تحب الأرامل أن يحرك الهواء الستائر، لا تحب أصوات الأبواب وهي تُصفق، ولا طقطقة الخشب في المدفأة. تخاف الأرامل من كل شيء لا يمكن رؤيته.

تخاف الأرامل من تقدم العمر بهن والوصول إلى أعمار أزواجهن. لا يحببن أن يصبحن أكبر من أزواجهن. لا يتحملن فكرة أن يكنَ أكبر. سيأتي يوم يكبرن فيه إلى حد أن يصبحن أمهات أزواجهن. لكنهن لا يرغبن أن يصبح لديهنّ ابن ميت.

تكتب الأرامل جملًا صغيرة على الدفاتر. مجرد رغبة في التوجه -مجددًا- بالحديث إلى أزواجهن. يحكين لهم كل الأحداث اليومية. يفعلن ذلك في الخفاء حتى لا يعتقد أحد أنهن مجنونات.

تذهب الأرامل إلى المقبرة. لديهن سرّ، مكان للمواعدة، سبب للتغيب، عذر قوي. للأرامل نقطة قوة صغيرة، تلك التي تتمثل في كونهنّ غائبات على الدوام.

تحضر الأرامل قطًّا إلى البيت، يمسحن عليه أثناء مشاهدة التلفزيون. يكون غالبًا قطًّا لا يُطقنه، يُطعمنه وهن شاردات الذهن.

يُشار إلى الأرامل بالأصابع في الحيّ. لديهن شيء ليس لدى غيرهن. مهما فعلن يَرَهُنّ الجميع دائمًا مهيبات، وشجاعات. يصبحن فارسات، وموضوعًا لضرب الأمثلة.

لا تعرف الأرامل ماذا يفعلن بأوقات الفراغ، وبالعطل. يدرسن الروزنامة، ويملأن الفراغات، يقمن بسدّ الفجوات. لا تحب الأرامل ليلة الجمعة. ويخفن من أيام الآحاد.

تنظف الأرامل المنزل لشغل الوقت. يمسحن الزجاج، يمرّرن الممسحة على البلاط، ينظفن الحمام باستماتة. يحاولن محو البقعة التي لطخت منزلهن.

ليس على الأرامل احتكار الألم. لا نتوقف عن إقناعهن وننسى منحهن إجابات. الأرامل لسن سعيدات، يجب عدم اعتقاد ذلك.

لا تمارس الأرامل الجنس. ينمن داخل فراش الزوجية الكبير، لكن لا يشغلن سوى جهتهن. في الأسابيع الأولى، ينمن ورؤوسهن هاربة نحو وسادة أزواجهن، دون أن يكنّ قد غيرن الغلاف.

الأرامل تائهات. يتعلقن بأي تفاصيل صغيرة، صورة، كلمة. يواصلن الحياة لأنه لا خيار آخر لديهن. لكنهن يمتن أحيانًا.

تخاف الأرامل من التذكر. يفضلن عدم فعل ذلك. لا يعرفن ماذا كانت آخر الأحاديث المتبادلة، إنهن يسبحن في الضباب. لم يعد بإمكان الأرامل استحضار وسماع صوت أزواجهن، يبحثن ولكن الصوت يفرّ منهن.

تختلط على الأرامل الكلمات. يرتكبن زلات اللسان. تخونهن اللغة، ويعشن معها قتالًا مستمرًّا. يقرأن **عزاء** بدل **عتبة**، **موتًا** بدل **كلمة**، **ضريحًا** بدل **سقوط**. تختلط عليهن المقاطع، ويصبحن من المعسرين قرائيًّا. إنهن مهووسات بمعجم الموت. يمقتن كلمة «قرّر»، يرفضن التفكير أن بإمكاننا تقرير الموت. لا يستطعن **الموت من الضحك**، أو أن يكن **ميتات من التعب**. يتعقبن الكلمات على ألسنة الآخرين، ويتساءلن هل هؤلاء الناس على وعي حقًّا بما يقولونه؟! مهووسات بحضور الموت داخل الحياة. يصبحن متخصصات.

لا تتجرأ إحدى الأرامل على قول أن زوجها كان: صعبًا، فظًّا، لا مباليًا، أنانيًّا. تكتفي بتلميحات خفيفة حول ذلك، وتقوم بتسويات صغيرة. لا تجرؤ الأرامل على قول: الحمد لله على إعفائي!

تتحمل الأرامل من جديد، المسائل المالية، المؤسسة، الزبائن. يقابلن موظف شركة التأمين، المصرفي، موظف المطبعة، موظف التوصيل. تتحول الأرامل، في بعض الأحيان، إلى رجال. بعضهن يحببن ذلك.

الأرامل مهمومات ولا عزاء لهن، بعيدات، يتعذر الوصول إليهن، مفقودات بشكل نهائي. تقف الأرامل على الجهة الأخرى: من الحياة، من المتعة، من الجمال.

الأرامل لسن غبيات. يعرفن أننا نراقبهن، نرصدهن، نقيم الأحكام عليهن. للأرامل سمعة يجب الحفاظ عليها، وذكرى يجب تشريفها. ليس عليهن سوى الصمود.

تدخل الأرامل في عشيرة النساء الوحيدات. تجري دعوتهن إلى سهرات نسائية، ونزهات للصديقات فيما بينهن. ويجري ضمهن إلى مجموعة المطلقات، المنفصلات، والعوانس. يشعرن بالغربة داخل هذه المجموعات. يفزعهن هذا العالم الذي بلا رجال. ليس لديهن شيء ضد الرجال.

تخاف الأرامل من العائلات، من الأماكن العامة الممتلئة بها. يشعرن بألم في البطن إذا سمعن طفلًا ينادي بابا. يبتسمن بغباء حتى لا يجلبن الانتباه.

تصبح الأرامل خطرًا على النساء الأخريات؛ فهن متاحات من الآن فصاعدًا.

تخرج الأرامل خفية، يأخذن الباص أو سيارة أجرة. يلتقين أحيانًا رجلًا يحببنه في المدينة. ما يزلن قادرات على أن يحببن وأن يكنّ محبوبات. لكن لا يخبرن أحدًا بذلك. لأنهن يشعرن أنهن مذنبات.

تتزوج الأرامل ثانية. نقول: إنهن يُعدن حياتهن. عندئذ ننسى أنهن أرامل.

الأشياء

لقد تخيلت هذه اللحظة عدة مرات. تفتح باب الشقة بالمفاتيح التي ما زلت تحتفظ بها. أنت قادم لجرد الأشياء المشتركة لدينا لتحدد ما الذي تأخذه وما الذي تتركه. أخبرتك، بكل ثقة فيك، أن تقوم أنت باختيار ما تودّ أخذه، وأضفت، لأجعل عظمة روحي محسوسة، أنني لا أعير الأشياء أية أهمية. لن ننزل بكل تأكيد إلى ذلك المستوى؛ أن نتواجه على أرض العالم المادي. لقد وعد بعضنا بعضًا بالابتعاد عن الأشياء التي أعطت إطارًا لاثني عشر عامًا من حياتنا المشتركة. قلنا: إننا سوف نظهر أنفسنا جديرين، سنرتفع قليلًا، المهم الآن أنه جرى تسوية الأساسي. لن نفسد كل شيء مرة أخرى. من أجل سجادة، مسجل أسطوانات، مرآة مغربية. سمعت صوت المفتاح في القفل بعد أن ضربت الجرس، وقطعتُ ما كنت أفعله. كنت أعرف أنك ستأتي هذا الصباح، وقد حرصتُ على أن أكون في البيت. رائحة القهوة تفوح من المطبخ وأنا عرضت عليك فنجانًا، شربته واقفًا قريبًا من النافذة. كنت تفضّل بدء ما أتيت من أجله قبل عودة الفتيات من المدرسة. اعتذرت واتجهت نحو الصالون وقد بدا عليك أنك حددت ما ستأخذه. لم أتبعك وفضلت أن أتركك تتصرف بمفردك، أمام المكتبة الكبيرة، أمام مجموعة أسطواناتنا، فضلت أن

أتركك تتأمل وحيدًا أمام التذكارات التي جلبناها من أسفارنا، وهو ما يعني تركك تتأمل قرارك المجنون في الرحيل. لم أكن أريد التأثير فيك، حاولت ألا أشعر بأي شيء وعرفت أنك تقوم بنفس التمرين: لا تأثير، لا تردد، لا ضعف. فكرتُ وأنا في المطبخ أنني أتكبد عناء التنظيف لأبقي يديّ وعقلي مشغولين، وأنك حضرت لمجيئك بعناية، وجرَدتَ بدقة كل تحركاتك، وأنك قد راجعت محتويات كل خزانة، وكل درج، وكل رف. تخيلت، وأنا أقف أمام الموقد أطبخ بكدٍّ، أنك قد أجريت مسحًا طوبوغرافيًّا للمكان، وأنك سوف تتصرف بدقة كرجل محنك، نبيل، بلباقة، ولطف، وأناقة. فكرت، والماء يتدفق في الحوض، أن خياراتك ستكون طريقة تتحدث بها معي، لغة سأُضطر إلى فك شفرة رسالة جديدة بها. أملت وأنا أغلق الحنفية، ثم أفتحها من جديد، أنه ما يزال لديك شيء لتقوله لي. اقترحت عليك أن تختار بنفسك، وبطيبتي الظاهرة، دعوتك لتكون سيد قرارك، دون أن أكون واعية أني أنصب لك فخًا. لقد استدعيتك لمواجهة المستحيل، فكرت وأنا أخلع قفازي المطاطي، ولا شك أنني تخيلت كيف سأجعلك تدفع ثمن الذل والألم اللذين سببتهما لي. لم أسمع أي صوت ولم أجرؤ على الخروج من المطبخ، لذلك اغتنمت الفرصة لأغسل بلور النوافذ أيضًا، الأمر الذي لم يفعله أحد منذ شهور طويلة. غضبت من نفسي لأنني بقيت سجينة في المطبخ، دون شيء أتطلع إليه سوى تلميع كل متر مربع. فتحت الراديو لأخفف من ثِقل الجوّ، ليبدو المكان طبيعيًّا، وتكون كل حركة أخرى طبيعية بدورها. كانت «من أجل الجسد»، إحدى أغاني دومينيك.أ، التي استمعنا إليها في الليلة التي أعلنت لي فيها أنك

«لم تعد على يقين أنك تحبني»، في الوقت الذي كنا قد أنهينا فيه للتو زجاجة نبيذ أبيض. غيرت المحطة، وكان مقطعًا من سمفونية «قداس الموت» لموزارت، وهو ما جعلني أفكر أن الوضعية ميئوس منها بشكل نهائي. واصلت محاولة إخراج نفسي من حصار حضورك بفرز محتويات خزانة المطبخ، واضعة على الطاولة زجاجات التوابل، وأكياس حساء منتهية الصلاحية، ثم معيدة كل زجاجة إلى مكانها، الزجاجات والجِرار التي كنت أنظمها عبر حروف تشير إلى أصنافها، بدقة مَرَضيّة -الأشياء الحلوة المذاق على الرف السفلي، والمالحة فوق العُلوي-، وأنت في الصالون، تقوم بملاحظة دقيقة مثل ملاحظتي، كما تخيلت، كنت تفكر في كل غرض على ضوء تاريخه، وبالتالي تاريخنا، ولا شك أنك استسلمت لعبثية الموقف. هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أسكب فنجان قهوة جديدًا، متمنية أن يحرقك كل غرض تمسكه بيديك، وأن يعيدك حيث الزمن الذي «كنت في على يقين من أنك تحبني»، كنت أصلي لأن تمنعك الأغراض التي ستختارها لأخذها معك، من أن تعيش بسلام، وأن يكون دورها في حياتك الجديدة هو إثارة الشغب ونشر بذور الشرّ.

كلما مرّ الوقت، كنت أفكر فيما أتيت من أجله فعلًا، بين جدران هذه الشقة الأربعة، خشيتُ فجأة أن تسمح لقسوتك بالسيطرة وأن يسيطر عليك هذا الكمّ من الدمار، ما دام هذا لم يحدث خلال أيّ من نقاشاتنا السابقة حين كان الأطفال ينامون في الجوار، أقول: نقاشاتنا، حتى لا أقول: مواجهاتنا، أو تصفية حساباتنا. خشيت وأنا أدخّن سيجارة على حافة النافذة المفتوحة، أن يكون رهانك

الحقيقي من خلال هذه الزيارة هو محو الآثار، وتدمير كل الأدلة على سنواتنا الماضية معًا. *سنوات الرصاص*، هل أحببت الضرب بعنف؟ *السنوات المظلمة، كيف استطعتُ تحملها*؟ هل كنت مولعًا لهذا الحد بوضع السلاسل؟

استجمعت نفسي، وخفضت مستوى صوت الراديو حتى تصلني الضوضاء التي كنتَ حريصًا على عدم إصدارها، لم تكن راغبًا في منحي أيَّ دليل، لا شيء، تتحرك بامتياز مثل شبح، مثل الظل الذي أصبحت عليه في الأشهر القليلة الماضية. فهمت أنك التحقت بغرفة البنات، وهو أمر لم يعجبني، قلت لنفسي بينما أنظف الآن الثلاجة، إلا لو دخلت إلى غرفتنا، وهو ما لم يعجبني أكثر، ولكن هناك لا أعرف ما الذي ما يزال بإمكانك أخذه، فقد أخذت ملابسك منذ الأيام الأولى، أكّدت لنفسي وأنا أنظف المكان المخصص للبيض، أنه لم يبق شيء في الخزانة الكبيرة، إلا لو كنت مهتمًّا بألبومات الصور الموضوعة داخل الكومودينو، وهذا أمر آخر تمامًا - انتفضت فجأة- ، الأمر الذي أهملنا مناقشته والذي يتطلب تعاملًا خاصًّا. لكن لا، إنك لم تغادر الصالون، ظننت أنني أدركت صرير الباركيه[1]، وهذا ما يعني أنك تتحرك، وأنك ربما تذهب وتجيء، مترددًا.

ثم إني سمعتك تضرب وترين من الجيتار وأنا استأت منك بسبب هذا الخطأ في الذوق، إنه جيتارك في نهاية الأمر، حدثت نفسي وأنا أخرج الزبدة من الثلاجة، وعلب الزبادي، والقوارير لأصل بشكل أفضل إلى الأماكن التي سأنظفها، ودهشت أنك لم تأخذه من البداية

(1) الباركيه: أرضية من الخشب المزخرف.

- يغادر الرجال دومًا مع جيتاراتهم-، لكن مرّ وقت طويل على آخر مرة حاولت فيها فهم أحد تصرفاتك.

كنت واقفًا في مدخل باب المطبخ، عندما كنت مقرفصة أنظف صناديق الثلاجة، مثل حمقاء حقيقية، وقلت لي: إنك ستذهب، وإنك بعد تفكير جيد، وجدت أنك لا تريد أخذ شيء، لأنه لا توجد أهمية لذلك. قبل أن أجد الوقت لدعوتك إلى فنجان قهوة آخر، بارد هذه المرة، لأؤخر ذهابك النهائي دقائق أخرى، قبل أن أعدّل تجعدات تنورتي، قلت: إنك ستنتظر الأطفال على باب المدرسة، مساء يوم الجمعة، كما اتفقنا سابقًا.

لقد كنت رائعًا، لم تأخذ شيئًا معك، ولا أيًا من الكتب التي أثرت بك، ولا شيئًا من الموسيقى التي بنينا حولها قصة حبنا، ولا أي تحفة، بل ولا *الرجل الملتحي* الذي أهديتك إياه في عيد ميلادك الأربعين، ولا اللوحة الصغيرة التي تعبت كثيرًا لأختارها قبل سنوات مضت، والتي كان اسمها (*نصر*). لقد تركتني عن قصد مع الأشياء، تركتني مع الثلاجة وغسالة المواعين، والتلفزيون، ومصباح غرفة المعيشة، تخليت عني والخزائن مملوءة، والرفوف ممتلئة، ولكن الفراغ هو ما تركته، تركت لي بقية قصتنا، بكل أحداثها، وأدق تفاصيلها ومعانيها، تركت لي الغابة بكل أشجارها، وكل بقايا الجذوع المقطوعة، بلبلابها المتعرش، ترحل لكنك لا تفصل شيئًا، تترك المنزل دون أن تقتلع الستائر، لا تتكبد المخاطر، تجتاز الاختبار، تهرب دون ترك أثر، لا دليل خلفك، ولا أمتعة. لا تقوم بربط حياتك الماضية بحياتك المستقبلية. لقد أردت أن تنقذني، جعلتني أصدق،

لكنك بذلك أوجعتني بضربة الرحمة. ولو أني اشتكيت لقلت لي: إنني لا أفهم، مرة أخرى، ولقلت لي: *مهما فعلت فلن يعجبك*، لو أنك أخذت السجاد الصغير وأسطوانات ميوسيك[1] كنت سأرى الحقد والأنانية في سلوكك، لو كنت أخذت الصندوق الذي في المدخل كنت سأرى الانتقام، لو أخذت كتاب السماوات ليوجين بودين كنت سأعتبرك متغطرسًا، لذلك لم تأخذ شيئًا في النهاية، قلت لي: إنك فضّلت ألا تلمس شيئًا. أغلقت الباب خلفك وبقيت وحيدة للأبد، مع المنزل الممتلئ حتى آخره بقصتنا الفاشلة.

(1) ميوسك: كريستوف ميوسيك، المعروف ببساطة باسم Miossec ، ولد في 24 ديسمبر 1964 في بريست في فينيستير، وهو مغنٍّ وكاتب أغاني فرنسي وشاعر غنائي وممثل. هو أحد الفنانين الذين شاركوا في تحديد «المشهد الفني الفرنسي الجديد» مع Dominique A .

مرَّ الوقت

مرّ الوقت يا حبيبي، وها أنت ذا هنا، غادر الأولاد منذ مدة وجيزة، لم نكن نتخيل أنهم سيختارون الجانب الآخر من العالم لصنع حياتهم، لم نكن نعرف أننا يومًا ما سنتجاوز الخمسين. إن قلبي ثقيل، ليس من وحدتنا الجديدة، بل من الوقت القليل المتبقي لنعيشه معًا، ولأن قلبي محطم هذا المساء، أريد أن أتحدث إليك قبل فوات الأوان.

أشعر بالغباء، لا يستدعي الإنسان حبيبه عادة، ليقول له: شكرًا، لا يوقف سير الأشياء ليقول: إنه سعيد. ولكني أشعر بالخوف هذا المساء من أن أفقدك، مع أن شيئًا لم يستجدّ، إنه الخريف، الذي بدأ يتسلل إلى داخلي، معلنًا طعم النهاية. ماذا فعلنا بكل هذا الزمن، الثلاثين عامًا التي شهدت على تقدمنا في السنّ، وخلالها تغيرت آمالنا؟ فهمنا أننا لن نستطيع أن نغير الكون، لكننا غيرنا طريقة نظرنا للكون، وقد فكرنا بقدر ما تصرفنا. قمنا بترقيع أشياء صغيرة، ولحظات قصيرة مسروقة من حركة الكون الكبيرة. استمددنا القوة من بعضنا البعض لنكون أنفسنا. لقد نظرت إليّ، وهذا كان كافيًا بالنسبة لي لأتجرأ على القيام بكل الأفعال.

نحن نقلل من قوة النظرة، ولا نعرف شيئًا عن الطريقة التي يتميز بها وجود أحدهم. أغلب الوقت، لا نفهم هذا الأمر، إلا إذا انطفأت تلك النظرة. عندئذ فقط تشعر بالقوة التي تتركك والاضطراب الذي يلازمك.

الأمر لا يتعلق بمراجعة الماضي، يا حبيبي، ولكنه الاندفاع مجددًا نحوك. عندما أرى في كل مكان حولنا دوار غرق السفن الغرامية، ووهم الحرية المرغوبة، وخيال اللحظة السامية، والمتعة اللامحدودة، عندما أسمع المحادثات التي يغذيها ألم الحب أو انتهاء الحب، عندما أقرأ كل الكتب التي دُوّنت فيها ندبات الفشل، وحيث تتكشف جماليات الخسارة، أجرؤ على الرجوع إليك وأخبرك مرة أخرى أنني أحبك، أجرؤ على أمر أحمق، انتهت موضته، ويفترض أنه لم يعد صالحًا ليُقال بصيغة أدبية، مثلما يقال. إن كان عليّ أن أقول «نعم» من جديد هذه الليلة، فسأقول «نعم» لحياة كاملة معك، بجانبك. لن أصرخ فيها بقوة إذن، نستطيع أن نضحك من أنفسنا، الخمسينيان اللذان يبدو عليهما أنهما يكتشفان توًّا الماء الفاتر، اللذان يلتصق بعضهما ببعض بمجرد أن يتبخر أطفالهما، نستطيع النظر إلى أنفسنا مثل شيئين زائدين. إنها مسألة بيني وبينك، أليس كذلك؟ لنقل: إنها مسألة بين نفسي وبيني، لأنني تعودت التكلم مع نفسي، وحدي، في الظلام، منذ ذلك الوقت الذي لم تعد فيه هنا.

بريجيت جيرو

كاتبة فرنسية ولدت عام 1960 بسيدي بلعباس في الجزائر.

تُعدّ واحدة من أبرز الكتّاب حاليًّا في فرنسا، حصلت على جوائز عدة، وكتبت ما يزيد على عشر روايات لعل أهمها «ذئب للرجل» التي رُشحت لجائزة غونكور للرواية عام 2017، ومجموعتان قصصيتان، أشهرهما «**نبالغ في تقدير الحب**» التي حصلت على جائزة غونكور للقصة القصيرة عام 2007، تتضمن 11 قصة قصيرة تدور حول الحب والعلاقات، والتعقيدات النفسية الإنسانية حول المشاعر. تُرجمت إلى أكثر من 20 لغة، من بينها الإنجليزية والألمانية والإيطالية والصينية والفارسية وغيرها.

المحتويات

نهاية القصة	7
صيف الانتظار	11
النهار والليل	19
إخبار الطفلين	23
اشتقتُ إليك منذ الآن	29
المكان الصحيح	37
العادة	43
عامي العاشر	49
الأرامل	55
الأشياء	61
مرَّ الوقت	67
بريجيت جيرو	69

نُبالغ في تقدير الحبّ

لم يحصل شيء، وأنت لا تحبّينه بعد اليوم. تحاولين التثبّت. يجب أن تكوني متأكدة. ولكنكِ لستِ كذلك. أنتِ تحبّينه، في الحقيقة، ولا تحبّينه في الوقت نفسه. عليكِ أن تقرري، لأنّ الأمر أصبح مزعجًا بالفعل. تفكرين أنكِ تحبّينه، لكنكِ لا تتحمّلين أن يقطع الصالون برداء الحمّام. أن يجلس أمام التلفزيون بهذه الهيئة، وشعره الذي ما يزال مبللًا، مسرّحًا إلى الوراء. تحبّينه هو، بلا شك، ولكنّ هذا المشهد المتكرر يوميًا هو ما يجعلك تنفرين. لا يجب أن تخلطي الأمور. الأكيد أنكِ تحملين كثيرًا من المشاعر الرقيقة تجاهه. يبدو أنّ هذا ما نقوله عندما نتوقف عن الحبّ. كلما أظهرنا مودّة أكثر، أحببنا أقلّ. ماذا إذن؟

تبرع بريجيت جيرو، الكاتبة الفرنسية المولودة في سيدي بالعباس في الجزائر ١٩٦٠، في التوغّل عميقًا في تعقيدات الحبّ، ما منح هذه المجموعة القصصية جائزة غونكور، إحدى أرفع الجوائز الأدبية حول العالم، وتُرجمت لأكثر من عشرين لغة.

منشورات حيـــاة
HAYAT PUBLISHING

الترقيم الدولي: 978-1-7386435-2-3 ISBN
978-1-7386435-2-3